الباب الثانى

الفصل الأول

العالم الثالث

كان يجب أن يكون العالم الثالث المنطقة الرئيسية المستهدفة للدعاية الدولية سواء عن طريق الإذاعة أو غيرها ، خاصة أنه يتميز بضم غالبية سكان العالم ، إلى جانب أنه لايزال هدف الاستعمار الاقتصادى الذى يجب على الإذاعات الدولية أن تشرحه وتفسره وفق ماتراه ، سواء بالتأييد أو المعارضة ، وهذا العالم على الرغم من أهميته الكبيرة لم يتعرض إلاّ مؤخرًا لعملية الاتصال الجماهيرية فقد كانت جميع هيئات الإذاعة العالمية الكبرى فى الشرق والغرب بطيئة للغاية فى إدراك أهميته وإعطائه الأولوية التى يستحقها أو فى تعديل أساليب دعايتها بحيث تجذب إليها جماهيره الواسعة .

ولسنا فى حاجة الآن لأن نؤكد أهمية العالم الثالث سياسيًّا ، خاصة منذ أن اعترف الشرق والغرب بمضار الاستعمار ، وبأنه شر مستطير ، ولو لم يعترف بذلك لاحتل العالم الثالث المركز الأول فى الدعاية الدولية . فالاستعمار له أشكاله وصيغه المختلفة : الاستعمار الاقتصادى – الاستعمار الجديد – التعاونية – الحيادية – المشاركة . . هذه المسميات تصف لنا محاولات الدول العظمى والدول التى تحاول أن تقف فى مصافها لفرض أيديولوجيتها على شعوب هذا العالم ، فهناك حتى الآن مناطق لاتزال مفتوحة أمام الصراع داخل دول العالم الثالث كالبرازيل والصين ومصر والهند واندونيسيا ، فهذه الدول تحاول أن تنشر نفوذها أو على الأقل تزيل ماتبقى من نفوذ للدول العظمى بين أصدقائها ، وجمهور العالم الثالث مشوق إلى الدعاية بالراديو ، ومشوق إلى تلقى الرسالة ، فهو يريد أن يسمع ويدرس الأيدولوجيات المختلفة . قد يرد البعض بوجود نسبة كبيرة من الأمية ولكن الإذاعة بالراديو لاتقف أمام هذا العائق ، فالراديو هو الوسيط النموذجى لإيصال الرسالة إلى الجماعات التى تتعامل ثقافيًّا بالطريق الشفهى ، بل لقد تغلب

الراديو على الأمية ليصبح الأداة الرئيسية لربط شعوب الدول النامية بالأنشطة السياسية وغير السياسية داخليًا ، ولاننسى أن هناك الكثير من الرقابة على وسائل الاتصال الجماهيرية فى غالبية دول العالم الثالث ، مما يجعل الطلب على سماع الإذاعات الخارجية كبيرًا ، كما أن مستوى الإذاعة فى المحطات المحلية سواء من ناحية الشكل أو المضمون وسواء فى البرامج أو الأخبار منخفض ، مما يزيد من درجة تقبل الشعوب النامية لمصادر الأنباء الأجنبية .

وهناك الأجهزة اللازمة لسماع الرسالة ، فمعدل بيع أجهزة الإرسال التى تحتوى على موجات قصيرة فى تزايد خرافى ، هذا وإن تكن نسبة امتلاك أجهزة الاستقبال للشخص الواحد أقل بكثير من النسبة العادية فى العالم ، فنجد فى غرب أوربا وشمال أمريكا ودول رابطة الشعوب البريطانية البيضاء جهازًا واحدًا لكل شخصين ، فى حين نجدها فى أمريكا اللاتينية جهازًا لكل ستة اشخاص ، وفى العالم العربى جهاز لكل تسعة أشخاص ، وفى شبه القارة الهندية جهاز لكل ٢٣ شخصًا ، وفى الصين جهاز لكل ١٨ شخصًا ، وهذه الفجوة بين الأغنياء والفقراء فى امتلاك أجهزة الراديو تضيق باستمرار ، وقد أدى الراديو أو الإذاعة دورًا حاسمًا فى تشكيل الرأى العام السياسى ، وفى احداث التغييرات السياسية فى نظم الحكم ، ولعل الشرق الاوسط إحدى مناطق العالم التى يضرب بها المثل ، كذلك أظهر الراديو فى بعض أنحاء أفريقيا ماعليه من قوة ، ومن المرجح جدًا أن يستمر فى القيام بدور أكبر فى المستقبل . وفى شبه القارة الهندية يحتل الراديو مكانًا مرموقًا فى أوقات الشدة والصراع ، وفى أمريكا اللاتينية التى تتبع النظام التجارى فى إذاعتها يحتل الراديو مكانًا ثانويًا فى التاريخ السياسى المتقلب لهذه المنطقة ، وقد تكون الإذاعة الدولية من الداخل إلى الخارج محدودة بعض الشىء ولكنها غير محدودة من خارج العالم الثالث إلى داخله ، نظرًا لانخفاض مستوى التعليم بين الشعوب المستقبلة للإذاعة الدولية فى هذا العالم ، وقد يكون من العسير أن تعبر الفجوة الثقافية فى الوقت الذى تشكل فيه المسافة بين المذيع الوطنى والمستمع فى الدول المتقدمة بعدا جديدا وسببا للتباعد والتفرقة فمن ناحية نجد أنه من الصعب أن يتغلب هذا المستمع على شعور الوصاية أو العطف ، وفى مقابل ذلك نجد نظرة المستمع فى الدول المتخلفة نحو المذيع الواسع الأفق المتبحر فى السياسة الدولية نظرة إكبار قد تتحول إلى شىء من الكراهية لهذا الصوت الذى يأتى من بعيد ، والذى يحمل فى نبراته العلو والميسرة والعلم والاتصال مع الشعوب فيجب أن يتسم بالصبر والتحمل ، فالرجل البسيط فى كل مكان سيسمع كل مالم يتعود على مجابهته

أو مواجهته ، وقد يكون فيه تحد له وتهديد لسعادته وتقاليده . . وهناك احتمال حقيقى فى أن تعتبر الإذاعات المتقدمة الرجل العادى فى العالم الثالث كمًّا مهملا ، فمثلا نجد الدول الغربية أو الديمقراطية وخاصة بريطانيا توجه إذاعاتها لطبقة الصفوة التى لا تشعر معها بفارق التعليم أو بفجوة ثقافية ، متناسية الرجل البسيط العادى ، ومن الجانب الآخر نرى المذاهب اليسارية الصادرة من موسكو وبكين تتجاهل الظروف المحلية للمستمعين ، والفوارق الثقافية بينهم وبين الدول الاشتراكية ، ولاتهتم بملهم عند الاستماع لمحاضرات سياسية طويلة فى المبادئ الماركسية ، أو تقارير عن انتاج الصلب والحديد ، أو بيانات عن المنجزات الأخرى ، ولقد أظهرت الدراسات أن جماهير المستمعين فى أفريقيا وآسيا تطالب بمزيد من الأخبار الوطنية ، أو التى لها طابع محلى أكثر من أى مستمع فى العالم . . ومحطات الإذاعة إما أن تقابل هذه الرغبة وتتحمل نفقات كبيرة جدًّا فى جمع الأخبار المحلية بسبب عدم كفاءة الوكالات الوطنية ، وإما أن تكتفى بمخاطبة الصفوة ، ولم تحاول إذاعة من الإذاعات الكبيرة أن تقوم بما قامت به إذاعة راديو الحرية أو أوربا الحرة ، إذ أجهدت نفسها لتحصل بأى ثمن على الأخبار المحلية للمناطق المستهدفة فى شرق أوربا ، ولعل أقرب محطة فعلت ذلك هى القاهرة فى الأيام التالية للعدوان الثلاثى سنة ١٩٥٦ حتى حرب سنة ١٩٦٧ ذلك بالنسبة لصوت العرب والبرنامج الثانى الموجه إلى شرق أفريقيا . ومن بين المشاكل التى يشعر معها المستمعون فى العالم الثالث بحساسية فائقة مشكلة اللغات إذ هى كثيرة للغاية فى العالم الثالث ، وقد تكون الإنجليزية فى الوقت الحاضر لغة التخاطب الأولى ، إذ يتكلمها ويكتب بها أو يعرف بعض كلماتها حوالى ١٥٠٠ مليون نسمة ، وهى تأتى بعد اللغة الصينية ، أما من يفهمها فهمًا جيدًا فهم طبقة الصفوة وليست الجماهير العريضة .

ولم تجرؤ إذاعة صوت أمريكا ولا الإذاعة البريطانية على قبول التحدى بتوفير خدمات لغوية تغطى مختلف اللغات واللهجات فى العالم ، وكل مافعلته الإذاعة البريطانية أنها أدخلت عددًا محدودًا جدًّا من اللغات الافريقية لمعارضة إذاعة القاهرة التى تذيع بحوالى عشرين لغة ولهجة أفريقية ، وتأتى بعدها موسكو التى تذيع بأربع عشرة لغة محلية للهند ، واحدى عشرة لغة لأفريقيا . وتنوع اللغات يعنى تنوع العادات والتقاليد ، ونظرة المستمع نحو العالم الخارجى والإذاعة الصادرة من مصدر واحد بلغة ماقد تغطى منطقة واسعة بها عدة لغات وتصبح هذه الإذاعة غير فعالة تماما . كذلك لاتستطيع الإذاعة أن تفرض نفس التأثير على

شعب يعتقد مثلا بأن الراديو هو رسول الشيطان مثل شعب يعتقد أنه لسان صدق وحق أى أنها لاتستطيع أن تتغلب على سلبية الناس فى المجتمعات المتأخرة تجاه الأخبار والمعلومات التى لاتمسهم شخصيًا وعن كثب .

وعلى العموم لاتستطيع الإذاعات الدولية أن تساير حاجات المستمعين فى العالم الثالث ، فهى مختلفة ومتنوعة ، ويقول أحد المشرفين على صوت أمريكا بالحرف الواحد : « نحن عندما نذيع للعالم الثالث فى صوت أمريكا لانفكر فى أن نشبع رغبات المستمعين من ناحية الأخبار الأفريقية » كذلك نجد الإذاعة البريطانية عندما واجهت ضرورة إجراء تخفيض فى إذاعاتها الدولية تختار البرامج المرسلة إلى الأفريقيين وغيرهم من المستمعين فى العالم الثالث لإجراء التخفيض عليها . وفى الجانب الشيوعى وبرغم التوسع الشديد فى الخدمات اللغوية بإذاعة موسكو والاهتمام السياسى الكبير الذى تبديه الصين بالدول النامية فإننا نجد أن النزاع الصينى السوفيتى قد أدى إلى إضعاف إذاعات الطرفين للدول النامية ، بسبب اهتمام كل منهما بتركيز إذاعتها ضد الأخرى ، والروس وإن كانوا قد حاولوا تحسين دعايتهم بحيث تتفوق على الجمود الأيديولوجى الذى تتسم به الدعاية الصينية فإنهم فشلوا فى تكوين جماهير من المستمعين تنافس مستمعى الدول الديموقراطية . فالرسالة الصادرة من موسكو هى بالتبعية رسالة اشتراكية ، ومركز الشيوعية هو موسكو ، التى تعتبر غريبة عن شعوب العالم الثالث ، فى حين يتمتع العالم الديمقراطى بمركز أفضل ، فما زالت الشعوب الأفريقية والآسيوية وأمريكا اللاتينية تذكر الصلات التقليدية التى كانت تربطها بالرجل الأبيض ، بل هناك عديد من البيض يشغلون مراكز هامة فى العالم الثالث ، أى أن الصلات بين المستعمرات السابقة ومستعمريها لاتزال قائمة ، ومن الغريب حقًا أن الصلات بين المستعمرات السابقة ومستعمريها لاتزال قائمة ، ومن الغريب حقًا أن الشعوب التى كانت محكومة ببريطانيا أو فرنسا أو إيطاليا لاتزال تضمر لها الكثير من الحب برغم انتهاء استعمارها ، وينطبق عليها المثل الدارج « القط يحب خنّاقه » .

وكان لوجود هؤلاء البيض فى دول العالم الثالث أثر كبير فى استمرار نفوذ الرجل الأبيض ، كما أعطى الدول الاستعمارية السابقة ميزة فى الاتصال الجماهيرى عن بعد ، بحيث يتعذر أن ينجح التبشير بأى أيديولوجية جديدة بسبب التأثير التراكمى لأيدولوجية المستعمر السابق ، وبالتالى تقول إن الإذاعة البريطانية والإذاعة الفرنسية لاتزالان تحتلان مركزًا متميزًا فى مستعمراتهما السابقة ، وعلى أسوأ الفروض بين طبقة الصفوة ، وهى الطبقة الحاكمة التى يبدها

مقاليد الأمور ، على أن هذا المركز المتميز سيتجرد من ميزاته تدريجيًّا خلال فترة طويلة نسبيًّا أضف إلى ذلك أن العاملين من رجال البرنامج والهندسة التابعين للندن وباريس يقومون بأعمال الاستشارة لكثير من المحطات الإذاعية فى العالم الثالث ، ولاسيما أفريقيا ، ولاشك أن وجود هؤلاء المستشارين فى بعض المحطات ساهم فى استقرار التنظيم الذى وضعته لندن أو باريس للإذاعة والتليفزيون فى المحطات الوطنية ، كما أن وجود هؤلاء المستشارين قد شجع على وجود صلة بين لندن أو باريس والنشاط التعليمى فى دول العالم الثالث ، وإن تكن هذه الصلة قد امتدت مؤخرًا إلى هيئة اليونسكو .

لقد نشطت هذه الهيئة فى مجال تعليم الكبار ، كما قامت بإدخال برامج التنمية الزراعية فى كندا ، ثم طبقته فى الهند عن طريق إذاعة عموم الهند ، ثم فى عدد من الدول الأفريقية ، وفى عام ١٩٦٨ أكدت التجربة الغانيّة مع اليونسكو أنه ليس من الممكن التعرف على نجاح الإذاعة الثقافية ، لأن برنامج الإذاعة لايزال يسير على نسق الإذاعة البريطانية ، بل هو يستعير بعض موادها التعليمية ، علمًا بأن الإذاعة التعليمية يجب أن تصطبغ تمامًا بالصبغة المحلية ، وإذا ما كان هناك مجال لتقديم المساعدة فيجب أن تكون هذه المساعدة محلية وتتناسب مع قدرات الإذاعة .

والإذاعة تتميز بالتكنولوجيا المبسطة ، ، فهى ليست كالتليفزيون الذى دخل فى كثير من دول العالم نتيجة ضغط تجارى أو سياسى من الدول التى تصدر أجهزته أو تساهم فى إنتاجه محلياً ، وقد يكون هذا الضغط فى بعض البلاد عن طريق الصفوة ، وإدخال التليفزيون فى دول العالم الثالث عمل لا جدوى من ورائه للشعب الفقير المنتشر فى بقع متناثرة ، والبرامج التى تستطيع محطات التليفزيون تقديمها فعلا هى البرامج الرخيصة المستوردة ، كالمغامرات والبرامج الفلكلورية التى تحتوى على الأغانى والرقص ، وذلك بسبب ضخامة تكاليف إنتاجها . أما الإذاعة فهى أكثر مرونة ، وتستطيع أن تصل إلى المستمع مهما بعد داره ، كما أن تكلفة البرنامج الإذاعى رخيصة جداً ، تستطيع أن تقوم بها الدول النامية بدون مشقة .

والإذاعات الدولية من الدول الكبرى قد فشلت حتى الآن فى أن تترك أثرا ملموسًا فى جماهير العالم الثالث ، برغم أن الراديو قد أصبح وسيلة شعبية للغاية يعلقه الفلاح فوق رأس بهيمته أو فى الساقية أو النورج ، وكثير من إذاعات العالم الثالث قد تجنبت السمة التجارية التى تتصف بها الإذاعات الأمريكية فيما عدا بعض دول امريكا اللاتينية ، وبعض الدول

الأفريقية ، كذلك تفرض الحكومات بغض النظر عن نظام الحكم – رقابة صارمة فى غالبية الدول الأفريقية والشرق الاوسط على الراديو وفى اسيا وشبه القارة الهندية ، كما تفرض بعض الحكومات مساعداتها الفنية والخيرية على الإذاعة فى بلادها ، ولاشك أن الإذاعة كوسيلة لتدفق المعلومات يجب أن تتمتع فى الدول النامية بقدر من الحرية فى برامجها المحلية ، ويتوقف ذلك على شعور القائمين فيها بالتزاماتهم القومية الحقيقية ، وتلبيتهم لرغبة السواد الأعظم من الشعب فى غير ماتفاهة أو ترخص ، ولما كانت الرقابة تعنى فى الواقع أن الإذاعات العالمية تصبح مطلوبة وبدون منافسة محلية وجب على دول العالم الثالث أن تولى الإذاعة للدول النامية الأخرى أهمية أكبر ، ولكن الواقع غير ذلك .

ولنبحث معًا بعض هذه الأسباب .

كان الاتصال فى مبدأ الأمر يسير فى طريق واحد فقط من الدول الغنية الى الدولة الفقيرة ، من العالم المتحضر إلى العالم المتأخر ، ومازال الأمر كما هو عليه . فصوت العالم الثالث لايسمع فى الولايات المتحدة ، أو الاتحاد السوفيتى أو الصين أو أوربا الغربية أو أوربا الشرقية ، ولقد تيقظت بعض الدول المتقدمة فى العالم الثالث إلى هذا الوضع فكسرت احتكار الدول الكبرى ، وأخذت توجه إذاعات للدول الأصغر ، ولا نستطيع أن نقيم هذه الإذاعات الدولية الصادرة من بعض دول العالم الثالث بسهولة ، كما لانستطيع أن نتأكد من أسلوبها وتأثيرها ، وإن يكن بعضها يسير على نهج لندن أو واشنطن أو موسكو أو ألمانيا النازية .

ولانستطيع أن نقول إن أسلوب الإذاعة البريطانية إذا ما اتبعته دولة من الدول النامية فلن تحيد عنه أو لا تفوق لندن ، فبعض إذاعات العالم الثالث تنافس لندن فى إيجابيتها ، ومن بين هذه الدول التى انتهجت سبيل الإذاعة البريطانية فى تنظيم برامجها الدولية طوكيو والبرازيل والهند ومصر ، على أنها فى نفس الوقت تعمل وفق توجيهات محددة ، حتى وإن كان نظام الرقابة داخل الإذاعة نفسها كما هو الحال فى طوكيو ونيودلهى والقاهرة ، ومن بين دول العالم الثالث التى تتبع نظام الإذاعة البريطانية كندا واستراليا ونيوزيلاندا ، أى دول رابطة الشعوب البريطانية البيضاء ، وفى أفريقيا نجد الكثير من إذاعتها تتبع نفس تنظيم الإذاعة البريطانية فى إذاعاتها الدولية ، ولكن لاتسير على مبادئها ولاتعتنق خصائصها .

ويرجع قصور الإذاعات الدولية فى العالم الثالث إلى قلة الموظفين المدربين ، وقلة الاعتمادات وعدم توفر الثقة السياسية مابين القادة والإذاعة وقصور الإذاعات فى أن تتطور إلى

منابر حرة لتشرح جميع وجهات النظر السياسية ، وهناك شيء واحد أظهر مايكون تتسم به جميع إذاعات العالم الثالث هو تمسكها بالوطنية أو القومية .

وقد اقتبست دول العالم الثالث المشايعة لأمريكا نظام صوت أمريكا وفى مقدمتها الفلبين ، كذلك نجد أثرًا قويًا للنفوذ الأمريكى فى الوقت الحاضر فى إذاعة اليابان وأندونيسيا والبرازيل والمكسيك كما نجد أثرا قويًا لإذاعة موسكو فى راديو هافانا وأديس أبابا ، وصفوة القول إنه إذا ماوجدت علاقة وثيقة بين دولتين إحداهما كبيرة والأخرى صغيرة تركت هذه العلاقة أثرها على الإذاعة ، سواء من ناحية التنظيم أو النفوذ وطريقة الأداء .

والإذاعة النازية بسبب تمثيلها لنظام سياسى مكروه قد تجنبها الكثيرون من الإذاعيين ، ولم تعد نموذجًا على الرغم من أن مبادئ الدعاية التى بشرت بها كانت ولاتزال صحيحة ، وكان لها فى وقتها تأثير كبير لايمكن تجاهله ولولا انكسار ألمانيا فى الحرب لاحتلت إذاعة سيزن الألمانية نفس المكانة التى تحتلها الآن الإذاعة البريطانية ، وإذاعة موسكو عندما تريد أن تسب إذاعة أخرى تصفها بأنها وريثة جويلز ، ولما كانت هذه السبة تطلقها موسكو بدون تميز فإننا لانستطيع إلا أن نعتبرها من قبيل السباب الأيديولوجى ، وقد استخدمت إذاعات كثيرة فى وقت من الأوقات بعض الأساليب التى بخسناها من قبل ، والتى اتصفت بها إذاعة سيزن الألمانية ، ومن بينها إذاعة بيافرا والاذاعات التحررية . . كصوت العرب والإذاعات الأفريقية التحررية ، والإذاعات الفلسطينية التحررية ، والإذاعة الليبية الحالية ، وقد تحاول بعض الإذاعات الوطنية فى بعض الأحوال وليس دواماً أن تواثم بين الحقيقة والأيديولوجية ، وفى هذه الحالة تصل بفنها إلى أقل أشكال الدعاية وضوحًا .

وليس معنى ذلك أن الدعاية التى شابهت الأساليب الألمانية لم تكن فعالة بل العكس ، فصوت العرب وإذاعة بيافرا كان لها تأثير لايجارى ، ولكن نكسة عام ١٩٦٧ أضرت بصوت العرب وبدعايته السابقة على النكسة مباشرة ، أما إذاعة بيافرا فكانت تمثل قضية خاسرة وعند الكلام على النموذج الألمانى واقتباسه نشير إلى أن محتوى الدعاية يجب أن يتمشى مع الخط السياسى المطلوب ، وهو الأسلوب الذى يستخدمه المدافعون عن الحرية سواء من جانب الحكومة أو المعارضة كما يستخدمه الطغاة والمستبدون ، وفى الحالة الأخيرة توصم المحطة بالنازية ، والواقع أن إذاعة أوربا الحرة وراديو الحرية قد فاقا الإذاعة النازية من ناحية تدخلها فى الشئون الداخلية للغير ، ومحاولتها المبالغة فى الدعاية لبيع الديمقراطية للدول الاشتراكية ،

فى حين لم تحاول الإذاعة الألمانية أن تستميل المستمعين فى الخارج إلى الاشتراكية الوصية ، وكانت تنادى بأن لكل دولة ولكل شعب حقه فى اختيار نظامه الخاص .

وحرب الإذاعات بين الشرق والغرب وعبر الحدود فى نصف الكرة الشمالى بأوربا قد امتدت إلى العالم الثالث . . فالشرق يعمل دائمًا على كيل الشتائم لإذاعات الغرب والعكس صحيح ، ولم تهتم أى منهما بالدعاية الصحيحة للعالم الثالث إلاّ بعد الوفاق بينهما ، خاصة الدول الديمقراطية التى تعتمد على المواد الخام التى ينتجها العالم الثالث ، هذا ولا يمكن لإذاعات الدول الكبرى الافتراض أن شعوب العالم الثالث سوف تواليها اهتمامها نتيجة صلات استعمارية سابقة ، أو نتيجة استخدام القوة والضغط ، وسواء كان صراع المستقبل بين القوى الكبرى سيدور حول العنصرية أو المواد الخام أو حيز الحياة أو فرض الاشتراكية أو الأخذ بالديمقراطية فإن بؤرة تجمع الأنظار هى العالم الثالث ، فهو الجائزة الأولى لمن ينجح فى اكتسابه إلى جانبه بين الكتلتين الشرقية والغربية ، وهذا هو السبب الذى من أجله تجد الدعاية بين الدولتين العظميين تدور الآن حول العالم الثالث وتأخذ شكلاً علمياً أكثر .

الفصل الثانى

الشرق الأوسط

يتميز الشرق الأوسط بحروبه الساخنة والباردة وتوتره السياسى ، كما يتميز بالدعاية التى تلهب الرأى العام ، وهو كجزء من العالم الثالث له ظروف مماثلة من صفوة متعلمة وسواد أعظم جاهل مما يدعو إلى زيادة تأثير الدعاية الدولية بشكل هائل ، والراديو فى الشرق الأوسط هو وسيلة رجل الدعاية والسواد الأعظم من الشعب من ناحية كونه الوسيلة التى تعارفوا عليها لتلقى الأخبار والآراء ، أو كما يقول فيلب ويبسون فى كتابه « الاتصال السياسى الدولى » ص ١٣٦ ، نجد فى القرية المصرية الأصيلة جهاز الراديو معلقاً فى حانوت البقال يعمل باستمرار لا لتسلية صاحب المحل بل خدمة لأصدقائه وزبائنه ، كما أنه الوسيلة لربط القرية البعيدة النائية بالقاهرة وما يجرى فيها وفى العالم بين موسكو ونيويورك ، والراديو يجعل الفلاح البسيط يفكر فيما يسمع قبل أن يتخذ قراره .

والإذاعات العربية فى كل بلد عربى لا تستهدف فحسب شعب دولتها فى الداخل فقط بل تأخذ بعين الاعتبار الشعوب المجاورة إذا كانت الإشارة اللاسلكية تصلها . خذ مثلا سوريا ولبنان والأردن وفلسطين ، أو مصر وفلسطين الواقعة شرقها ، وليبيا فى غربها ، والسودان فى جنوبها ، ومن ثم نجد الكثيرين من أبناء الدول العربية يستمعون إلى خدمات جيرانهم المحلية أو الدولية باللغة العربية ، بل المحطات السرية الأجنبية . ولقد أدى صوت العرب من القاهرة دوراً رئيسيًّا للغاية فى تعويد العرب على الاستماع للإذاعة الدولية ، ولاغرو فمصر هى الدولة الأولى التى بدأت إذاعات موجهة ، وكان ذلك خلال الحرب العالمية الثانية . والسمة السائدة لمحطات الإذاعة العربية أنها كانت أكثر تحفظاً ، بل أكثر رجعية قبل الثورة المصرية فى عام ١٩٥٢ ، فكانت الشعوب العربية تنظر إلى إذاعاتها نظرة شك وارتياب ، والواقع أن العالم

العربى بدأ يقظته الحقيقية إثر الحرب العالمية الثانية ، وإن تكن مصر قد سبقته فى ذلك بحوالى ثلاثين سنة ، وقد كانت هذه اليقظة أظهر ما تكون بين الشعوب العربية فى شمال أفريقيا ومنها شعب الجزائر ، وكان لظهور الدول العربية المتحررة فى ذلك الوقت مثل مصر وسوريا ولبنان أهمية قصوى ، وقد واكبت عملية إدخال الراديو إلى الجزائر قيام مصر وسوريا بتشييد إذاعات وطنية حقيقية .

والسوريون كانوا أول من حبب الجمهور فى الإذاعة بتقديم الموسيقى الراقصة والبرامج الخفيفة ، أما مصر فقد اهتمت بالنواحى الدينية وبالقرآن ، وكان لها تأثير هام فى جميع أنحاء العالم العربى ، فكان الناس يجتمعون حول المذياع للإنصات إلى كلام الله ، ولم يمض طويل وقت حتى بدأت مصر فى إقامة برامجها الموجهة فبدأتها عام ١٩٥٣ ، وكان صوت العرب أول برنامج موجه باللغة العربية من القاهرة يحمل صوت الثورة والتطور إلى جميع أنحاء العالم العربى ، بل نقول إنه خلق رأياً عاماً فى بعض الدول لم يكن موجوداً من قبل ، خاصة بين الأميين وأنصاف الأميين ابتداء من الشمال العربى عند الحدود التركية المتاخمة لسوريا والعراق حتى الجنوب فى عدن والسودان ، ومن الغرب عند السواحل الصحراوية الرملية المطلة على المحيط الأطلسى إلى الشرق عند مصايد اللؤلؤ والمرجان ، ولم تقف الأمية أو بعد المسافة حائلا دون وصول الكلمة المذاعة من القاهرة ، وقد حمل صوت العرب الذى أنشأه صالح جودت فى جنباته نوعاً جديداً من الأغانى الشعبية وتوحيداً للقومية ممثلة فى الغناء الوطنى ، الذى أخذت جميع أجهزة الراديو العربية تقدمه لمستمعيها . ثم أتت بعد ذلك الستينيات حيث شهد العالم العربى بعض التغيرات الاجتماعية التى يمكن مقارنتها بما حدث فى روسيا عام ١٩١٧ ، وفى الصين عام ١٩٤٩ وهذه التغيرات استلزمت نوعاً جديداً من الدعاية المباشرة المبسطة العاطفية الموجهة للفلاحين والعمال ، وقد كانت تميل إلى الإصلاح منها إلى إحداث تغيّر مذهبى ، وفى عام ١٩٥٦ عندما تواطأ البريطانيون والفرنسيون والإسرائيليون على القيام بغزو عسكرى لمصر كان لصوت العرب أثره الكبير على الشعوب العربية ، بل على الحكومات الأجنبية التى كانت تتصنت على صوت العرب وتترجمه وتبلغه لرؤساء وزرائها . والواقع أن بعض ما أذاعه صوت العرب كان أساساً للقرارات التى اتخذها إيدن بدون روية ، فقد اعتقد الكثيرون فى بريطانيا أن إذاعات القاهرة قد تدخلت ضد سياسة بريطانيا ، فمنعت الأردن من الانضمام إلى حلف بغداد فى ديسمبر عام ١٩٥٥ ، كما عملت على طرد عميل بريطانيا جلوب

باشا فى مارس عام ١٩٥٦ من قيادة الفيلق العربى بالأردن ، ولا شك أن اللهجة الساخنة وبعض التفسيرات والتأويلات التى أذاعها صوت العرب والتى ترجمت إلى الإنجليزية بمعرفة أقسام الاستماع فى الإذاعة البريطانية – قد ساهمت بجزء كبير فى إثارة غضب إيدن والحكومة البريطانية ، وجعلتها تتصرف مثل هذا التصرف الأحمق فى مشكلة القناة ، وانتهز الصهاينة سوء التفاهم بين مصر وبريطانيا وفرنسا فألقوا البترول على النار فزادت اشتعالا ، وراح بن جوريون يصور جمال عبد الناصر فى صورة الطاغية المستبد ومبادئ الثورة المصرية بالهتلرية .

ومن مساوئ الدعاية الكلية التى بدعتها ألمانيا أن الناس أصبحوا يعتقدون بأنها تأتى عادة مقدمة لعمل عسكرى ، فى حين أن اتباع مصر للدعاية الكلية كان بمثابة تطبيق لنظرية حافة الهاوية التى نادى بها روجرز ، فى حين تعلم مصر أن الدعاية القائمة على استعمال القوة لا تنجح ، ومن ناحية أخرى نرى مدير الإذاعة البريطانية سير هيوجرين يحاول الحط من إذاعة صوت العرب ، فقد كتب بعد حوادث ١٩٥٦ بعد أن اتضحت الظروف مدافعاً عن سياسة بريطانيا فقال : « لقد بالغ الكثير من الناس فى قوة إذاعة القاهرة كسلاح فى يد عبد الناصر ، وكل ما وصل إليه صوت القاهرة إنما كان عن طريق استغلال العاطفة والشعارات المحببة ، مثل العروبة ومناهضة بريطانيا ، أو مناهضة فرنسا أو الاستعمار ، وهى مشاعر كامنة فعلا فى الدول العربية ولم يخلقها صوت العرب ، وكل من ظن أن فى استطاعة إذاعات بريطانيا أو فرنسا أو أمريكا منافسة صوت العرب كان على خطأ ، فمشاعر العرب مهيأة لاستيعاب ما كانت تقوله القاهرة » . انظر مقال هيوجرين فى كتاب جبهة الدور الثالث الصادر عام ١٩٦٩ ص ٣٨ وقد عرض هيوجرين فى هذا الكتاب سياسة الإذاعة البريطانية عرضاً دقيقاً وهو ينتقد الرأى السائد بأن صوت العرب كان له تأثير كبير فى إثارة الشعوب على الاستعمار البريطانى والفرنسى . لقد اعتمدت بريطانيا عام ١٩٥٧ أكثر من ١٣ مليون جنيه لتعزيز دعايتها فى قرن أفريقيا عن طريق الصور والكتب والمجلات ، بل ذهبت إلى حد عرض إنشاء محطة تليفزيونية لتصرف الأهالى عن سماع صوت أفريقيا من القاهرة ، وهو شقيق صوت العرب ، كما أشارت التايمز إلى « ان الإذاعات الشرقية لا تعتبر عاملا يعتد به فى الشرق الأوسط وشرق أفريقيا ، فى حين أن إذاعة القاهرة دائبة النشاط ، تتدفق منها الدعاية ليس فقط باللغة العربية ، بل باللغتين السواحلية والهوسا » . ومن الناحية العلمية لا نستطيع أن نقول إن الإذاعة

وحدها تستطيع أن تثير الشعوب إلى فعل شيء ، ولكن لابد من وجود عوامل وأسباب أخرى تعمل فيما بينها على إثارة الشعور ، وما الإذاعة إلاّ المحرّك أو الحافز لما تأتيه هذه الشعوب ، كما أننا لا نستطيع أن نقول إن تجمع الناس حول المذياع دليل على إيجابية ما يذاع ، وعلى تجاوب الناس سياسياً وبفاعلية معه ، فسياسة الحكومات لا تعتمد على إذاعات « الغير » وعملية طرد جلوب باشا لم تقم أصلا على ما أذاعه صوت العرب ، وبالتالى تشير إلى أن تأثير الراديو لا يقاس بعدد الناس الذين يدعون بأنه الأصل والمحرك ، وبالتالى كانت هناك مصادفة أو توافق فى الرأى بين ما أذاعه صوت العرب والمراقبون الخارجيون جعلت المراقبين يعتقدون أن الإذاعة كان لها أثر شعبى واسع النطاق .

ولا يمكن أن نسند إلى صوت العرب قيامه « بفبركة » الأخبار التى تحدث ، خاصة بالنسبة لسير القتال فى عام ١٩٦٧ ، فقد كان يتلقى هذه الأخبار من جهات أخرى ، وكان دوره نقلها للشعب ، وإن كان فى بعض الأحوال يزيد أو يضيف من عنده بحيث جعل الرأى العام مشوشاً أو مبلبلا ، وكل ما يؤخذ على صوت العرب أنه هاجم الكثيرين ، ولم يكن هذا الهجوم جزءاً من سياسته بل تنفيذاً لاستراتيجية لم تضعها الإذاعة ، والواقع أن حملات الكراهية التى صدرت عن صوت العرب ضد بعض الرؤساء العرب قد أضعفت من الثقة فيه كعامل رئيسى فى توحيد الشعوب العربية التى تستمرئ الاستماع إلى هذا النوع من الجدل السياسى الذى قد ينحرف أحياناً فيهبط إلى مستوى السباب ، ولكن هذا الجدل أو الخلاف ظاهرى أكثر منه حقيقة ، على أن صوت العرب قد نجح فى خلق رد فعل شعبى هائل عام ١٩٥٨ ضد انتخابات نورى السعيد عندما أعلن أن هذه الانتخابات قد زورها الاستعماريون ، وأن البرلمان ما هو إلا مهزلة استعمارية ، ولقد ثار الشعب العراق ضد نورى السعيد بعد أن أدرك أنه أراد التخلص من بعض معارضيه فسحلهم فى المسجد ، وبالتالى قامت حملات ضد المبعوثين العراقيين مما أدى إلى زيادة إراقة الدماء ، وكان دور صوت العرب فى هذه الأحداث أنه كان يشرح مقدماً سياسة نورى السعيد . وبمجرده من ادعاءاته ، ولكنه لم يكن العنصر الذى أثار الشعب على نورى السعيد ، بل الشعب العراق نفسه هو الذى ثار على ظلم نورى السعيد . وكان لصوت العرب موقف خاص بالنسبة لشرق الأردن سرعان ما خفت حدته بعد اتفاق الأردن ومصر فى ٣٠ مايو عام ١٩٦٦ ، أما عن دور صوت العرب فى الحرب المصرية الإسرائيلية عام ١٩٦٧ فإنه لم يفصح عن حقيقة سير المعارك ، بل زاد من الأسطورة التى كان

يتمتع بها ، ولكن لما أتت النهاية أدرك الناس أن جهة ما قد غررت بهم ، والخطأ الأكبر ليس خطأ صوت العرب بل خطأ الرؤساء الذين كانوا يشرفون على الدعاية ، لأنهم كانوا لا يضعون حداً لأحلام اليقظة التى كان يذيعها صوت العرب خاصة فى شططه عند تفسير هزائم ١٩٦٧ وقلبها إلى انتصارات ، بل إن القيادة العليا فى مصر كانت تعجب مما يقال فى الإذاعة وما تعرفه هى فعلا من حقائق ، ويبدو أن واضعى استيراتيجية الدعاية قد نسوا أن الانكسارات تتطلب نوعاً من الدعاية يختلف عن الانتصارات ، بمعنى أن أهم ما يجب مراعاته هو ألاّ نكذب على أنفسنا أو نصور لشعبنا شيئاً ليس حقيقياً ، والواقع أن رجال الدعاية أدركوا هذا الدرس ، وبالتالى انتهت السياسة الدعائية التى كان يتبعها صوت العرب قبل عام ١٩٦٧ إثر النكسة ، وحلت نبرة الرصانة والتعقل محل الصراخ والعصبية ، وتحول صوت العرب إلى خط آخر يلتزم بالحقيقة كما يهتم بأخبار الدول العربية . وصوت العرب سلاح أيديولوجى هام وسع دائرة اهتماماته إلى مناطق أبعد من الدول العربية ، ولقد أشار د . حاتم فى فبراير عام ١٩٧٣ بعد التعديلات التى أدخلت على البرامج الدولية من القاهرة إلى أن الدعاية الخارجية من القاهرة قد نجحت كل النجاح فى تحويل الرأى العام العالمى ضد إسرائيل عن طريق الحجج المنطقية ، وقال إن هدفنا من ناحية ومائل الإعلام الخارجية أن نكتسب أنصاراً مع تحييد الشعوب المناهضة بقدر الإمكان ، ومن نتائج مشروعات الإعلام الخارجى أن الرأى العام فى أوربا تحول فى غير صالح إسرائيل ، ولقد جاءت زيارة جولدا مائير لفرنسا وإيطاليا والفاتيكان شاهداً على ذلك .

كما أعلن د . حاتم أن مصر نجحت فى كسب الرأى العام الأفريقى ، وأن الإذاعات الصادرة عن القاهرة كانت فى مقدمة وسائل الحملة المصرية فى تحويل الدول الأفريقية ضد إسرائيل ، وذلك عن طريق نشر الحقائق . . ولقد برهنت أحداث أكتوبر عام ١٩٧٣ على صدق هذه السياسة الجديدة وفاعليتها ، وكثيراً ما أشار العرب إلى النضج السياسى الذى أصبحوا يتمتعون به نتيجة حرب ٦٧ وبسببها تمكنت الإذاعة المصرية من أن تدفن الى الأبد هزيمة عام ١٩٦٧ ، ونشير هنا إلى الدور الذى أدّته برزانتها وتعقلها وتمسكها بقول الحقيقة ، فكانت البلاغات العسكرية الصادرة عن حرب أكتوبر مختصرة ومفيدة ، وليس فيها تشنجات أو عصبيات ، كما أوضح الساسة العرب بشكل ظاهر أهدافهم بدون أن يشيروا إلى أنهم لن يكفوا عن القتال إلاّ بعد إلقاء إسرائيل فى البحر .

وصوت العرب فى الوقت الحاضر ليس الوحيد الذى يحمل رأى الشعوب العربية ككل ، ولكنه أشد الإذاعات اعتدالا ، وهناك إذاعة طرابلس التى تذيع برنامج صوت الشعب ، وهناك المحطات الفلسطينية ، وهناك أيضاً إذاعة المملكة العربية السعودية من الرياض ، وقيام هذه الإذاعات لم يؤثر على إذاعة القاهرة بل عزز من مكانتها ورأيها ، فكثير من هذه الإذاعات تنادى بما تنادى به القاهرة ، ويلاحظ أن إذاعة القاهرة أخذت تتجه أكثر وأكثر نحو طبقة الصفوة من العرب ، ونحو المعتدلين ، مع التزام المنطق والحجة ، أما بعض الإذاعات الأخرى فلم تستوعب الدرس استيعاباً كلياً خاصة تلك التى تتحدث عن الأيديولوجية الاشتراكية الجديدة . . ومن الملاحظ أن مصر هى مقر الفن والفنانين ، وبها أعداد كبيرة من الكتّاب والممثلين والموسيقيين وغيرهم من مهندسين وفنيين ، ولن تستطيع أية إذاعة تحاول منافسة إذاعة القاهرة أن تتجنب الفن المصرى ، والواقع أن جميع الإذاعات تذيع الأغانى المصرية والتمثيليات المصرية ، بل النكتة المصرية ، كما أن العربية السعودية تعمل على تأييد الاستيراتيجية المصرية منذ نوفمبر عام ١٩٧٣ باستخدام سلاح البترول ضد الدول المناهضة للقومية العربية . ومن الجانب الآخر نجد إذاعات ليبيا تلتزم بخط استيراتيجى أشبه ما يكون بالاستيراتيجية التى كان يتبعها المحور ، فمثلا مجلة التحرير التى تذيعها محطة طرابلس تحاول النيل من دولة « الإقطاعيين فى المغرب » وتحض على قلب نظام الحكم فيه ، ويرد المغرب على ذلك بتقديم برنامج خاص موجه إلى ليبيا تحت عنوان « حكم الطاغية » ولقد وقعت الاستيراتيجية الليبية فى كثير من الأخطاء ، فمثلا أهابت بالأردنيين فى حرب أكتوبر بأن يخلعوا الملك وينضموا إلى الحرب ، فى حين كانت الاستيراتيجية العربية مخالفة لذلك تماماً ، وبعد أكتوبر امتدت ساعات إرسالها من ثلاث ساعات يومياً إلى ثمانية تحت اسم صوت الأمة العربية ، وقد افتتح رمضان عبد الله المراقب العام هذه الخدمة معلناً ان من المشاهد فى المنطقة العربية أن الإذاعات العربية أصبحت لا تعبر عن إرادة الشعوب العربية ، ونحن نأمل بإذن الله أن يصبح صوت العرب الصوت الوحيد الذى يعبر عن مشاعر العرب أينما كانوا ، وهناك أيضاً الإذاعات الفلسطينية ، وهى لا تكلّ ولا تهدأ ، وهذه الإذاعات تعمل من عواصم دول عربية وعلى محطات هذه الدول وموجاتها ، ومنظمة التحرير الفلسطينية لها محطة خاصة بها . وقد تختلف الخطوط الاستراتيجية بين المحطات الفلسطينية وبين الدول العربية ، فمثلا كانت الإذاعة الفلسطينية تشعر بمرارة فى الوقت الذى كان القتال يدور فى الأردن فى سبتمبر عام ١٩٧١

مبرزة المذابح التى أقامها الملك حسين ، مقسمة على الانتقام لهذا الدم العربى المراق ، فى حين التزمت بعض إذاعات أخرى بخط أقل حماساً ويميل إلى الأسى والأسف أكثر منه إلى الغضب ، مُهيباً بالأردن فى نداءاته ان يوجه أسلحته إلى أعداء العروبة لا إلى بعضهم بعضاً ، وهذا بالفعل ما اتبعه صوت العرب ، وبعد ذلك بثلاث سنوات قامت الإذاعات الفلسطينية بنشر قصة التمرد فى عمان بمجرة الملك حسين على أن يتخذ إجراءً صارماً ، وفى نفس الوقت مسلطة عليه الأنظار ، والإذاعات الفلسطينية تفخر للأسف باستقلال الواحدة منها عن الأخرى ، وبقدرتها على تقرير الخط الدعائى الذى تراه ، كما أعلن أكثر من مرة أن إذاعات منظمة التحرير الفلسطينية من العواصم العربية لا تدين بالولاء للدول المضيفة لها ، فقد أعلنت إحداها فى ١٨ أبريل عام ١٩٧٣ أن الإذاعات العربية وباقى وسائل الاتصال العربية لا تقدم الحقائق لشعوبها ، فهى تسير وفق سياسة الدول التى تتبعها ، ولما كانت هذه السياسة تسير على نقيض مبادئ الثورة الفلسطينية فلن تفيدها ، بل تعمل على إنهائها وضربها ، ثم استطردت إلى سبها فقالت : « هناك وسائل إعلام عربية تعمل على تخدير الشعوب العربية ، وتقبل الوجود الصهيونى ، ولسوف تبقى الإذاعات الفلسطينية سلاحاً يتفاعل مع سلاح المقاتل حتى يتم تحرير الأرض المحتلة » .

وحدث فى بعض الأحيان أن كانت إذاعة القاهرة التى تستضيف الإذاعة الفلسطينية وتقدم لها موجاتها وأجهزتها موضع غضب هذه الإذاعة ، الأمر الذى يجعل المراقب يتشكك فى صدق الجهة أو الجماعة التى تتسلط على هذه الإذاعة ، وفى مايو عام ١٩٧٣ أذاع صوت فلسطين من بغداد أن الفتيات المسلمات قد اغتصبتهن القوات الصليبية اللبنانية ، وفى اليوم التالى كذبت الإذاعة هذا الخبر ، معللة أنه وصلها عن طريق إذاعة سرية لعملاء أجانب ، وفى نفس الوقت نجد إذاعات عربية تلتزم بالخط الوطنى وتنادى بالتجمع ، ومنها : الجزائر ، وتونس ، والقاهرة ، والعراق ، وسوريا ، ولبنان ، وتمتلك جميعها خدمات دولية .

وإذاعة قول إسرائيل . . أى صوت إسرائيل معزولة تعادى جميع دول هذه المنطقة ، وليس معنى ذلك أن تستهين بخدمتها باللغة العربية بل بالعكس ، يحاول الصهاينة القائمون على الإذاعة الإسرائيلية أن يجعلوا من قول إسرائيل باللغة العربية برنامجاً محلياً عاماً ينافسون به البرامج المحلية فى الدول العربية المجاورة إلى جانب كونه برنامجاً عاماً داخل إسرائيل والأراضى المحتلة ، فقوة إرساله تصل إلى ما بعد الحدود الإسرائيلية ، بل إلى ما بعض الأراضى المحتلة .

ولم يقتصر الإسرائيليون على جعل إذاعتهم مسموعة فى الدول العربية المجاورة ، بل عمدوا إلى تقوية محطاتهم التليفزيونية لتكون واضحة فى هذه الدول ، ويدعى الإسرائيليون أن لهم جمهوراً كبيراً من المشاهدين وهم يجذبونهم بإذاعة الأفلام الأمريكية ، خاصة أفلام المغامرات والسرقة ، ثم يقدمون لهم الأخبار والتعليقات ، والعرب وإن كانوا يسمعون أو يشاهدون الإذاعة أو التليفزيون الإسرائيلى ، فإن تاريخ إسرائيل قد ترك فيهم مناعة قوية ضد الدعاية الإسرائيلية ، حتى وإن كانوا يعيشون داخل حكم ديكتاتورى . . فعندما نشأت إسرائيل كانت هناك إذاعتان محليتان : **إحداهما** – الإذاعة العربية فى رام الله ، وكانت تقدم لها وزارة الخارجية البريطانية والمخابرات العسكرية الإعانات اللازمة **والأخرى** إذاعة قول صهيون أو صوت صهيون الذى كانت تشرف عليه الوكالة اليهودية ، وبعد اعتراف أمريكا بإسرائيل تحول الإشراف إلى مكتب رئيس الوزراء . . وفى منتصف الستينيات تحولت الإذاعة إلى ملكية عامة مع جعل عملية التحرير تحت إشراف هيئة عامة تتبع الحكومة .

والتزمت الإذاعة الإسرائيلية فى إذاعاتها الدولية باستراتيجية عنصرية متعنتة خاصة بعد حرب يونيو سنة ١٩٦٧ التى ذهبت بعقولهم . . ولقد أرادت الإذاعة الصهيونية أن تتوسع فى إذاعاتها الدولية ، ولكن لم تتوفر لها الاعتمادات اللازمة . وبعد حرب أكتوبر عام ١٩٧٣ انتهت النشوة وحل اليأس ، وبدأ الإسرائيليون يدركون أن العرب ليسوا هذا الشعب الذى يمكن ازدراؤه واحتقاره كما كانوا يلقنون أولادهم ، وكما بالغت إذاعاتهم مبالغة شديدة فى التهوين من العرب واحتقارهم ، حتى شعر المستمعون الأجانب إزاء نبرة التعالى والغطرسة بالامتعاض والتأفف .

أما العسكريون والسياسيون فلم تغرهم هذه الدعاية ، وكانوا يعرفون تماما قدرة العرب ، ولقد بذلوا فى حرب أكتوبر كل ما فى جعبتهم وحاربوا بشراسة ، ولكنهم هزموا هزيمة منكرة أمام المصريين ، وكان نتيجة ذلك أن أخذ رجال الدعاية يظهرون استعدادهم للتراجع عما كانوا ينادون به والتوقف عن المبالغة والتفاخر والمباهاة ، وقد أخذ الموقف السياسى والعسكرى فى الانهيار . . وكما حدث لصوت العرب فى عام ١٩٦٧ عندما كان يبالغ فى تفاؤله حدث نفس الشىء لصوت إسرائيل عام ١٩٧٣ ، بل لجأ إلى التزوير والمغالطة وأذاع صورا صوتية أو أفلاما قديمة ادعى أنها مأخوذة فى حرب ١٩٧٣ ، وهناك مشكلة واجهت العناصر التى كانت تنادى بالاستقلال فى العمل بالبرامج الدولية فى إذاعة قول إسرائيل الخارجية تتمثل فى

النصيحة العلمية التى تقدم بها خبراء الدعاية المحترفون فى معهد الأمن القومى الإسرائيلى . . فمن ناحية الدعاية إما أن يقوم بها خبراء فيها وإلا فشلت . فقليل من العلم ضار للغاية ، إذ هو يؤدى إلى إجراء تجارب فى ميدان الحرب النفسية ، وإلى تزيد فى القلق وانشغال البال نحو تحقيق أهداف محددة بوسائل محددة . . وفى بعض الأحوال أدى قليل من المعرفة فى الإذاعات الأجنبية بقول إسرائيل إلى كثير من البلبلة ولا سيما أن القنوات المحلية الداخلية كالبرنامج العام تسمع بالمثل فى بعض البلدان المجاورة ، ومن ذلك أن بن جوريون عندما فشل فى استرضاء جمال عبد الناصر فى إذاعته الموجهة عند قيام الثورة المصرية بدأ يسبه ويصفه بالطاغى المصرى ، فالتقطت الإذاعة هذه السبة وألصقتها بجمال عبد الناصر عند كل إشارة إليه . . وبعد أكثر من عشر سنوات ، أى فى منتصف الستينات بدأت الإذاعة الإسرائيلية فى برامجها المحلية تأخذ طابعاً متحرراً بعض الشىء ، فأسقطت هذه السبة ، ولكن البرامج الخارجية الصادرة من تل أبيب استمرت فى كراهيتها للزعيم المصرى ، واستمرت تقولها لمدة سنتين أو أكثر قبل أن تسقط هذه العبارة غير الودية ، وأهم من ذلك الخدمات الأجنبية التى تقوم بنشر وإذاعة سياسة مختلفة عن السياسة التى تبشر بها قول إسرائيل فى برامجها المحلية ، مثال ذلك أن الحكومة عندما هاجمت تعديل جاكسون ، والذى اشترط لقيام الوفاق بين الاتحاد السوفيتى والولايات المتحدة أن يحسن الشيوعيون معاملتهم لليهود فى الاتحاد السوفيتى – أخذت الإذاعات الخارجية تشرح وجهة النظر الحكومية ، على أن بقية أقسام إذاعة إسرائيل وتليفزيونها فى الداخل قدمت الموضوع على هيئة محادثات أو مناظرات ، مع عرض وجهات النظر المختلفة ، وهناك تباين فيما تقوله إسرائيل للعالم وللعرب ، ففى شهر يناير سنة ١٩٦٩ أعلنت فى إذاعتها الداخلية أن الدول الكبرى كالاتحاد السوفيتى والولايات المتحدة لا تستطيع الوصول إلى تسوية لمشكلة الشرق الأوسط ، فمثل هذه التسوية يجب أن تنبع من داخل المنطقة ، وبعدها بيومين أشارت فى إذاعاتها الخارجية إلى أن الدول الكبرى البعيدة عن المنطقة أقل قدرة من أن تجبر دول المنطقة على أن تتصرف بشكل ينمشى مع مصالحها ، وتعنى بذلك إرغام العرب على الجلوس مع إسرائيل ، ولقد أشارت الإذاعة فى حديث لجولدا مائير فى مارس سنة ١٩٦٩ إلى أنه لا يوجد أحد فى إسرائيل على استعداد للانسحاب من الأراضى الحالية ، وأن إسرائيل تريد أن تعرف من رؤساء الدول العربية ما إذا كانوا يريدون السلام على هذا الأساس أم لا ، ومعنى عدم الانسحاب أن إسرائيل تريد حدوداً مائعة بين الدول العربية وبينها ، وبدون ضمانات من الدول

الكبرى . أوكما قالت إذاعة إسرائيل قبل ذلك فى فبراير إن الضمانات الدولية لا يمكن أن يعول عليها ، فإسرائيل تدرك أنها المسئولة وحدها عن أمنها وسلامتها .

وهذا التأرجح فى أهداف إسرائيل مرجعه فى الواقع إلى رغبتها فى التوسع ، وإسرائيل التى تضم كثيرا من الجنسيات المختلفة لا يمكن إلا أن تختلف فيها الآراء ، بل قد تصل الخلافات إلى حد التوتر بين من يسمون أنفسهم بالحمائم وبين الصقور ، سواء فى ذلك العاملون فى أجهزة الإعلام أو العاملون فى المصالح الأخرى ، والبرنامج العربى من إسرائيل مملوء بالإضرابات ، بسبب الصعوبات التى تجدها حكومة إسرائيل فى مزج يهود الدول العربية بيهود إسرائيل الذين يتكلمون العربية مع العرب أنفسهم ، والإذاعة الدولية الموجهة إلى الاتحاد السوفيتى بعدد من اللغات السوفيتية وأوروبا الشرقية تواجه نفس الإشكال ، خاصة فيما يتعلق بهجرة اليهود من روسيا ، بدون الانتقام من اليهود السوفييت الباقين . . والواقع أن هذا إشكال وقعت فيه الإذاعة الإسرائيلية بسبب سوء سياستها ، إذا هى جمعت بين الدين والدولة ، وأقامت استراتيجيتها على هذا الأساس . .

والذين يستمعون إلى إسرائيل من بين العرب ، يدركون أنهم عندما يستمعون إلى قول إسرائيل إنما يستمعون إلى محطة للعدو ، وإلى تفسيره الخاص للأحداث ، وتعلم إسرائيل ذلك ، ومن ثمّ فهى تعتمد على الإذاعات الأجنبية التى تسمع فى المنطقة ، خاصة الإذاعة البريطانية ، فى استهواء الرأى العام لوجهة النظر الإسرائيلية بدون الإفصاح عن كونها مساندة لإسرائيل ، والواقع أن الإذاعة العربية من لندن كانت أول إذاعة أجنبية فى قسم الخدمات الإمبراطورية الذى سُمى فيما بعد باسم ما وراء البحار ثم الاذاعات الدولية ، وقد بدأت هذه الإذاعة فى بداية يناير سنة ١٩٣٨ لتكون ترياقاً « ردًّا » للدعاية الإيجابية الفعالة التى كانت تقدمها إيطاليا وألمانيا ، ولقد استطاعت هذه الإذاعة بعد هزيمة ألمانيا أن تؤسس صلات استعمارية وتستهوى عدداً كبيراً من المستمعين من بين الطبقة المتعلمة ، الذين كانوا يتوقون إلى معرفة مصير بلادهم نتيجة الصراع الدولى أو حرب ١٩٣٩ ، وقد اهتمت وزارة الخارجية البريطانية اهتماماً خاصًّا بالعالم العربى ، لما فيه من ثروات بترولية ، وبالتالى زاد الاهتمام بالخدمة العربية من لندن ، ولا تزال هذه الخدمة تحتل المقام الأول من بين اللغات الأجنبية ، وتأتى فى الدرجة الثانية بعد اللغة الإنجليزية ، ولم تدخر الحكومة البريطانية وسعاً أو مالاً من أجل تحسين الاستماع وتحويل الموجة القصيرة إلى موجة متوسطة لتصبح برنامجاً عاماً ينافس البرامج الوطنية

فى المنطقة أو بحل محلها .

والحكومة البريطانية على استعداد لتحويل إذاعتها العربية إلى برنامج لجميع الدول العربية ، وفى سبيل ذلك ألغت الإذاعة العبرية فى عام ١٩٦٨ ، نظراً لأنها كانت تخشى أن تتضارب الدعاية الإنجليزية فى البرنامج العبرى مع الدعاية باللغة العربية ، ويكتشف ذلك العرب ، وكان هناك رأى ينادى بإقامة محطة عبرية فى قبرص ، ولكن رفض القائمون على الإذاعة العربية من لندن هذا التفكير رفضاً باتًّا ، ومن ثمَّ اكتفوا بإذاعتها على الموجة القصيرة ، وبعد حين أغلقوا البرنامج العبرى واكتفوا بمكتب صغير فى لندن يرسل لإذاعة إسرائيل الأنباء والتقارير المطلوب إذاعتها هناك ، ولعل هذه السياسة تفسر لنا الصلة الوثيقة والتطابق الشديد بين الدعاية الإسرائيلية والبريطانية والأمريكية والتنسيق العجيب بينها ، هذا وقد انضمت إليها أخيراً الإذاعة الألمانية بالعربية من مالطة .

وفى نفس الوقت نجد الإذاعة البريطانية تهتم كل الاهتمام بالخدمة العربية وحمايتها من التأرجح فى السياسة ، الذى هو صفة من صفات وزارة الخارجية ، وليس أدل على هذا التأرجح من المجادلات التى ثارت نتيجة تأميم قناة السويس ، وكيف أدت هذه المجادلات إلى توتر فى العلاقات بين الإذاعة البريطانية ووزارة الخارجية ، وكانت النتيجة أن زاد احترام المستمع العربى للإذاعة البريطانية ، والواقع أن إذاعة لندن العربية لا تعبر عن سياسة الحكومة البريطانية بدقة ، بل هى أميل إلى وجهة النظر العربية ، أى أنها ليست أمينة فى نقل وجهة نظر وزارة الخارجية ، وقد رؤى أن تكون كذلك كنوع لتخدير الأعصاب . . وبهذه المناسبة نشير إلى أن الموظفين العرب فى لندن كانوا سيتوقفون عن الإذاعة كرد فعل لتهديد بريطانيا فى مسألة قناة السويس ، كما صمموا على تعزيز طلبهم الخاص باذاعة وجهات النظر المؤيدة والمعارضة للحكومة حسب قوتها الشعبية بعرض استقالاتهم ، بمعنى أن تعرض وجهة نظر المعارضة بصورة أكبر من وجهة نظر الحكومة فى مسألة تأميم قناة السويس ، الأمر الذى لا يجعل الإذاعة العربية من لندن صورة صادقة تشف عن سياسة بريطانيا الحقيقية فى المستقبل ، ولقد أثبتت البحوث التى أجريت فيما بعد على المستمعين أن استجابة القسم العربى لرأى الموظفين العرب بعرض قدر أكبر من المعارضة لسياسة الحكومة فى مشكلة قناة السويس قد أنقذ الإذاعة البريطانية من أن تفقد قسماً كبيراً من مستمعيها العرب ، ومن المضحك أن بعض رجال الإذاعة البريطانية بعد الهزيمة فى حربها الأثيرية مع إذاعة القاهرة كانوا يرون أن ما من شىء

يستطيع أن يجمع كلمة العرب وراء مصر ويدعم سمعة الإذاعة المصرية إلى أقصى حد مثل عرض إذاعة لندن للسياسة الحقيقية للحكومة البريطانية ، وقد يرجع الخلاف بين ما تذيعه الإذاعة العربية من لندن وما يذاع فى الإذاعة الإنجليزية فى الإذاعة العالمية بالإنجليزية إلى نفس هذا السبب .

وهكذا نجد أن الإذاعة البريطانية قد احتفظت بمستمعيها فى البلاد العربية ، ولكن لم تقف الحكومة المصرية ساكنة أمام هذا التهديد القوى من الإذاعة البريطانية ، والقائم على لوى الحقائق . وكثيراً ما قامت الإذاعة المصرية بحملات ضد الإذاعة البريطانية ، ولعل أهمها وأكثرها شدة ما وقع فى أواخر عام ١٩٧٢ عندما هب المتعلمون يطلبون مقاطعة هذه الإذاعة الأجنبية ، وبالفعل تم التشويش على موجاتها المتوسطة والقصيرة حتى نهاية مارس من السنة التالية ، كما نزل برنامج « الأعداء والعملاء » إلى الميدان ليفضح الإذاعة البريطانية ، ولعل من الأسباب التى وردت فى تعليل هذه الكراهية أن الإذاعة البريطانية قد أساءت تأويل العلاقات المصرية الروسية ، خاصة فيما يتعلق بمسألة الفنيين السوفييت ، كما أنها راحت تهلل عندما ذهب أحد الضباط المعتوهين بسيارتين من السيارات المصفحة إلى المسجد الحسينى بالقاهرة ، ونادى بحرب ضد إسرائيل معتبرة ذلك ثورة ضد النظام المصرى ، كما أذاعت أخباراً عن مؤامرة موهومة دبرها سلاح الطيران ضد الرئيس السادات ، ولقد استدعت الجهات المصرية السفير البريطانى سير ريتشارد بومنت لتفسير موقف بريطانيا . وعندما أوضحت مصر لدوم ميتوف سوء تدبير بريطانيا أمر فى الحال بإغلاق محطة الإذاعة البريطانية فى مالطة . ومهما يكن من سوء نية الإذاعة البريطانية ، ومهما يكن من تفسيرها لرد الفعل المصرى من أن القصد من احتجاجات المصريين هو رفع الروح المعنوية المصرية ، فإن حرب أكتوبر سنة ١٩٧٣ كانت العلاج الشافى والدائم لمثل هذه الأقاويل من الإذاعة البريطانية .

وقد أشار أحد المراسلين من بيروت فى نوفمبر سنة ١٩٧٢ إلى هذه الحملة على الإذاعة البريطانية عندما أغلقت مالطة محطة النقل البريطانية فقال : على الرغم من أن صوت أمريكا وإذاعة صوت إسرائيل قد خفتا إلى مهاجمة مصر مساعدة منهما للإذاعة البريطانية فإن مصر لم تهتم بهذه الحملات الجانبية وركزت على الإذاعة البريطانية ، لأن إسرائيل مهما قالت فهى عدوة للعرب ، وأمريكا مهما صرخت فهى التى أقامت إسرائيل وهى التى تحميها .

ويصف لنا موريس لينى مراسل الإذاعة البريطانية فى حرب أكتوبر أن الإذاعة البريطانية

قد استهدفت حملة كراهية حقيقية فى مصر والعالم العربى ، فى حين لم تستهدف صوت أمريكا لمثل هذه الكراهية برغم اتباعها نفس الأسلوب فى حرب أكتوبر سبب ذلك أن العرب كانوا يعتقدون فى صداقة وصدق الإذاعة البريطانية ولكنها خانت هذه الثقة ، وإذاعة صوت أمريكا وإن كانت تذيع برنامجها العربى بنفس الساعات التى تذيع بها برنامجها الأسبانى إلى أمريكا اللاتينية فإن رحلات كيسنجر أثارت اهتمام العرب بما تفكر فيه واشنطن ، ولم يكن لصوت أمريكا أى تأثير فى إثارة هذا الاهتمام ، والمشرفون على صوت أمريكا يعلمون أن الصلة بين العرب والإذاعة البريطانية وإن تكن قوية حتى الآن فإنهم يأملون أن يتحول العرب عنها إليهم ، وللأمريكيين محطة تذيع على الموجة المتوسطة بجزيرة رودس يشرف عليها أمريكيان وستة من العرب ، يقومون بعمل برامجها فى بيروت ، ومهما يكن من أمر فإنّ الأمريكيين والبريطانيين من بعدهم عرضة لأية عاصفة سياسية تطيح بثقة شعوب الشرق الأوسط فيهم ، وما يقال عن الغرب يقال بالمثل عن شرق أوربا ، وإذا مال الميزان ناحية الغرب خف ناحية الشرق والعكس صحيح . وقد أخذت مصر تهتم بما تذيعه أمريكا أكثر من اهتمامها بما تذيعه موسكو ، وعلى العموم فإن العرب معروفون بعنادهم وسخريتهم كمستمعين للإذاعات الأجنبية مهما كان مصدرها ، وليس من السهل استهواؤهم . . وقد يظن البعيد عن مجال الدعاية أن الموجات الأثيرية الموجهة إلى الشرق الأوسط قد ازدادت ازدحاماً ، وأن الدعاية بالراديو لها سوق كبير ، وقد يكون هذا الظن على شىء من الصحة ، ولكن من المشكوك فيه أن تأتى الدعاية بنتائج تستهوى العرب وتكون فى غير صالحهم فى نفس الوقت .

الفصل الثالث

أفريقيا

لا تعتبر القارة الأفريقية بالمكان النموذجى لانتقال الموجات الإذاعية ، ولقد كتب ليونارد دوب فى عام ١٩٦١ « يشوب جو أفريقيا اضطرابات كهربائية مما يجعله غير صالح لنقل الموجات الأثيرية ، خاصة الموجة المتوسطة التى تستخدم فى أوربا وأمريكا ، والتى تعتبر اقتصادية هناك ، كما أن الموجات الأرضية تعوقها الغابات والجبال » . . ولما كان الأفارقة يسكنون فى تجمعات متناثرة هنا وهناك كان لابد من أن تقطع الموجات الأثيرية مسافات أكبر لتصل إليهم . وجميع المستمعين للموجة القصيرة فى أفريقيا يدركون أن هذه الموجات لا يمكن الاعتماد عليها ولعل أصلح موجات للقارة الأفريقية هى التشكيل الذبذبى ، ولقد تمكنت جنوب أفريقيا من تغطية رقعتها بهذه الموجات .

على أن الموجات القصيرة المستخدمة حالياً أكثر قوة مما كانت عليه ، ومع ذلك نعلم أن أفريقيا بالذات يسوء فيها استقبال هذه الموجات .

وعلى الرغم من كل هذه العوائق فإن تسويق أجهزة الراديو لم يتأثر بسوء الاستقبال فقد ارتفع عدد أجهزة الاستقبال فى أفريقيا الاستوائية ارتفاعاً سريعاً جداً من ٣٦٠ ألفاً فى عام ١٩٥٥ إلى حوالى ١٨ مليوناً فى عام ١٩٧٤ ، ثم إلى اكثر من ٢٩ مليونا فى عام ١٩٧٩ كما انخفض سعر الجهاز وبالتالى انتهى عصر الاستماع عن طريق الميكروفونات أو الاستماع الجماعى ، ويوجد فى أفريقيا جنوب الصحراء ما لا يقل عن عشر محطات إرسال ، قوة كل منها أكثر من ١٠٠ كيلووات ، أهمها فى أنجولا ، وبرازافيل ، وغانا ، وليبيريا ، ونيجيريا ، وجنوب أفريقيا ، وتترانيا ، وزائير . ومن ناحية عدد ساعات الإرسال نجدها محدودة ، إذ لم تصل واحدة من هذه المحطات إلى عدد الساعات التى تذيعها المحطات العالمية فيما عدا غانا التى

أخذت إذاعتها فى الانحدار بعد نكروما ، أى منذ منتصف الستينيات . وجنوب أفريقيا التى تذيع حوالى ١٦٦ ساعة فى الأسبوع ، وغالبية الإذاعات الدولية التى تأتى من خارج أفريقيا هى الإذاعة البريطانية وصوت أمريكا وموسكو وبكين أما إذاعة القاهرة ، والتى تقف فى مصاف هذه الإذاعات ، فهى أفريقية ، وهناك محطات دولية صغيرة فى فرنسا ، وهولندا ، وألمانيا ، والبرتغال ، توجه إذاعاتها إلى أفريقيا ، ومن ثمّ كان لنا أن نتوقع معركة حامية من أجل المستمعين الأفريقيين ولكنها فى الواقع معركة عشوائية للأسف الشديد ، وإذا ما علمنا أن أهم العوامل التى جعلت أفريقيا حتى الآن فى معزل إذاعى نسبىّ عن بقية أنحاء العالم عدم وجود أجهزة اتصال كافية وعديدة من الخارج إلى الداخل ومن الداخل إلى الخارج ، على الرغم من وجود بعض الإذاعات الدولية وتحسن الاتصالات الداخلية بشكل أفضل من ذى قبل ، فالدول الكبرى تنظر إلى أفريقيا ، ومنها جنوب أفريقيا باعتبارها ذات أهمية استيراتيجية جانبية وتدرك القوى المختلفة فداحة الصدام بينها من أجل أفريقيا ، وإن تكن تعلم فى نفس الوقت أن أفريقيا سوف تصبح محطة احتكاك أيديولوجى من الدرجة الأولى ، حيث تتنافر النظم السياسية ، ويعمل كل نظام على إظهار مزاياه وعيوب منافسه من الأنظمة . . والأفريقيون لا يرحبون بأن يكونوا حقول تجارب للأيديولوجيات المتنافسة للدول العظمى بعد أن حلت موجة الاستقلال والوطنية التى بدأت فى غانا وعبرت القارة الأفريقية حتى شرقها ، وهناك زحمة من المشاكل السياسية والاقتصادية التى تتطلب حلولا تتمشى مع الظروف والتقاليد والعادات السائدة ، ومنظمة الوحدة الأفريقية تهتم فى المقام الأول بترابط كيانها إذ تتجنب التعرض للدعايات الأجنبية ، خاصة أن العامل الرئيسى الذى يجمع غالبية الحكومات الأفريقية فى أفريقيا الاستوائية هو الرغبة فى تهدئة الجو السياسى ، وهذا ينصرف إلى تجنب المواجهة الفعلية مع المناطق التى يسيطر عليها البيض فى جنوب أفريقيا ، ومنظمة الوحدة الأفريقية لم تكن تظن عند نشأتها أن تؤدى الحركات السلمية أو المظاهرات ضد البيض إلى أى تغيير سياسى . .

وأخيراً ظهر بعض الساسة الأفريقيين الذين أعلنوا الآن بأن الوقت قد نضج لتقييم هذه السياسة تقييماً منطقياً ، ثم الانتقال إلى سياسة هجومية جديدة ، ونتيجة للسياسة الأولى نجد الدول الأفريقية الاستوائية قد أهملت وسائل الاتصال الجماهيرية ، خاصة الصادرة منها للخارج ، ولقد جاهدت « الأورتنا » وهى اتحاد هيئات الإذاعات والتليفزيونات القومية الكبيرة ،

فعقدت مؤتمرات لا نهاية لها لبحث التنسيق بين إذاعاتها ، أو معالجة الأمور التى تهم هذه الإذاعات معالجة يتفق عليها ، ولم تسفر هذه الاجتماعات إلاّ عن مزيد من الحديث دون العمل . والخلاف فى الرأى يأتى تبعاً للخلاف بين دول المنظمة نفسها ، على أن تترانيا هى الدولة الوحيدة من بين أفريقيا الاستوائية إلى جانب مصر فى أفريقيا الشمالية التى تدين بخط ثابت لا يلين ضد الاستعمار ، وباتجاه ثورى موجه إلى المستعمين الأفريقيين . . ولقد وضعت غانا أيام نكروما مشروعات لقاعدة كبيرة للإذاعة الدولية هى مرحلة أولى فى سيمفونية إعلامية تعزف فيها جميع الدول المتحررة – أو التى على وشك التحرر سواء فى غرب أفريقيا أو شمالها أو شرقها أو وسطها – لحن الحرية ، وهذا المشروع ذهب كما ذهبت أفكار نكروما الأخرى وتحطم على صخرة عدم المبالاة وقلة الاعتمادات ، وعدم الرغبة فى الكفاح من أجل الحرية .

وفى غرب أفريقيا تعتبر نيجيريا الدولة الوحيدة التى حاولت القيام بنفس الدور الذى أراده نكروما ، وإن تكن خدماتها الخارجية لا تزال من الناحية الدعائية تميل إلى الجانب الأكاديمى ، ولقد استحدثت إذاعة لاجوس فى نوفمبر سنة ١٩٧٣ برنامجاً أسمته بالحملة الصليبية ، وكرسته لبلوغ النصر الكامل من أجل تحرير المستعمرات ومن أجل الاستقلال الاقتصادى والثقافى ، ومن أجل العنصرية ، علماً بأن هذا الهدف العام يجذب إليه الكثير من المستمعين ، على أن الصعوبات الفنية والمالية قد حالت دون خلق برامج دولية على قدر من الكفاءة والحرفية ، بحيث تشد المستمعين إليها ، ومن المشكوك فيه حقًّا أن السلطات العليا فى نيجيريا ترغب فى مثل هذه الخدمة ، خاصة أن نجاح راديو بيافرا فى الحرب الأهلية قد زاد من خوف زعماء نيجيريا من استخدام الراديو استخدامًا شاملا فى الدعاية الخارجية ، نظراً لأنه سلاح ذو حدين ، ومعنى ذلك أن ظهور نيجيريا كقوة لها بأسها فى غرب أفريقيا لم يكن بسبب الدعاية على الإطلاق ، وحكام زامبيا ينظرون أيضاً فى ريبة وشك إلى قدرة الإذاعة ووظائفها ، ومن ثم نجدهم يهملون تخصيص الاعتمادات اللازمة لها ، وبالتالى أصبحت إذاعتهم ضعيفة ، ويوجد برنامج فى إذاعة زامبيا عنوانه مرآة زمبابوى يقدمه الاتحاد الوطنى الأفريقى لزمبابوى ، ويكاد يماثل الإذاعات الخارجية التى بدأتها زامبيا فى مايو عام ١٩٧٣ ، ومن ثم لا نستطيع أن نقول إن لزامبيا إذاعة خارجية موثرة ، وقد يبدو أن إضعاف البرامج الخارجية فى زامبيا كان عن قصد خوفاً من قيام جنوب أفريقيا بدعاية مضادة إذا ما اهتمت زامبيا بإذاعتها الخارجية ، ولقيت تجاوباً من الأفريقيين ضحايا التفرقة العنصرية ، على أن

حكومة زامبيا تدعى بأنها تقوم بواجبها فى مجال الإذاعة الخارجية بعد أن بنى الصينيون لها محطات إرسال ، فقد جاء فى إذاعة من زامبيا فى مايو ١٩٧٣ بعد إقامة المحطات الصينية : « والآن سوف نستطيع أن نوجه نشرات الأخبار إلى الدول العنصرية وغيرها . . ونطلعها على الحقيقة ، حقيقة ما هو حادث فعلا ، وتفنيد الأكاذيب التى تذيعها محطات العنصريين البيض ، وما قد يرد فى نشراتهم من إفك وبهتان . ولقد كنا حتى بناء هذه المحطات فى موقف لا نحسد عليه ، بل لم نكن نصل إلى شعبنا فى المناطق الريفية ، فكان ضحية الإذاعات العنصرية التى أشبعته أكاذيب وبهتاناً » .

وما ذكرته الإذاعة عن نشر الحقائق بين المستمعين البيض ما هو إلاّ ذرٌّ للرماد فى العيون ، فلا الأفريقيون ولا البيض قادرون فى هذا الوقت على تغيير الوضع الراهن .

وإذا ما تغاضينا عن مثل هذه المبالغات التى قد تصدر من محطات الدول المجاورة لأفريقيا الجنوبية العنصرية لا نجد أمامنا إلا محطة واحدة فعالة فى دعايتها الخارجية من بين الدول الأفريقية الاستوائية ، هى محطة راديو تنزانيا ، ومع ذلك هناك خدمة خارجية فى محطة راديو ليبيريا ولكنها متخصصة فى التبشير بالإنجيل ، وهذه المحطة قد تستهوى بعض المستمعين ولكن لا أثر محسوس لها . وهناك أيضاً محطة راديو زائير وتتجه إلى الموسيقى أكثر من اتجاهها إلى الكلمة المنطوقة ، وكانت هناك محطة صوت الإنجيل وهى محطة تبشر بمذهب لوثر وكانت تعمل من أديس أبابا ، وتتجه إلى مخاطبة سكان شرق أفريقيا ، وهى بقدر ما تستخدم من موسيقى تذيع الأخبار لا لأنها تعتقد فى الموسيقى والأخبار ، بل باعتبارهما طُعماً لعملية التبشير ، أما عن الإذاعات الخارجية من كمبالا فيجرى إعدادها وقد قام الرئيس السابق بوضع حجر الأساس لمحطات الموجة القصيرة فى يناير عام ١٩٧٤ ، مُعلناً أن هذه المحطات لن تستخدم فى الدعاية إنما ستكون وسيلة لنشر الرسائل التى يريد إرسالها لإخوانه من زعماء أفريقيا ورؤساء الجمهوريات ، ولم تبرهن هذه الإذاعة بعد على فاعليتها ، ومن الناحية السياسية يعتبر راديو تنزانيا أهم إذاعة موجهة من بين دول أفريقيا الاستوائية ، وقد افتتحت هذه الإذاعة فى أول يناير عام ١٩٦٨ ، ومن أهدافها تأييد حركات التحرير الأفريقية ونشر نشاطها وإذاعة الأنباء الصحيحة لدرء الدعاية الكاذبة المغرضة التى تذيعها بريتوريا فى جنوب غرب أفريقيا .

ولعل الهدف الأول – وهو تأييد حركات التحرير – هو الذى يضفى على هذه المحطة أهميتها ، إذ أن المشرفين على حركات التحرير الأفريقية يستخدمون التسهيلات الممنوحة لهم فى

تنزانيا ، وكأنها الصوت المعبر عنهم دولياً ، ولقد أنشأت المحطة قسماً جديداً لتأييد حركات التحرير مع توحيد البرامج التى تقوم هذه الحركات بإعدادها مع برامج محطة راديو تنزانيا ، ومن ثم زادت هذه الإذاعة من أهمية تنزانيا باعتبارها الدولة الاشتراكية الوحيدة فى أفريقيا الاستوائية ، كما أضافت نوعاً من الأهمية على الخط الاستيراتيجى السياسى للرئيس نيريرى القائم على المساعدات الذاتية فى القرى . وقد يكون من العسير أن نبرهن على فاعلية محطة راديو تنزانيا ، ولكن لما كانت المحطة هى الصوت الوحيد للنشاط اليسارى فإنه يتمتع بميزة لا تتمتع بها الإذاعات الأخرى ، إذ هو يفرض نفسه على المستمع الذى يريد أن يعرف شيئاً عن الاشتراكية . ومن الناحية التكنيكية نجد المشرفين على حركات التحرير يستخدمون راديو تنزانيا فى نشر أخبارهم ، وبالتالى يصبح مصدراً من مصادر أخبار الكفاح الأفريقى . وفى موزمبيق نجد جبهة فريليمو تتوجه بالشكر والثناء للإذاعة الموزمبيقية لوضعها تسهيلاتها الفنية تحت تصرف الجبهة .

وليست تنزانيا بالدولة الوحيدة التى تساعد حركات التحرير ، فهناك إذاعات الجزائر ، ومصر وزامبيا ، والكنغو برازافيل ، على أن سياسة حركات التحرير الفعلية لا توضع فى عواصم هذه الدول بل فى دار السلام ، لأنها قريبة من ميدان الكفاح ، ومن ثم نجد الأحزاب المختلفة داخل كل حركة من حركات التحرير تتنافس من أجل الحصول على حيز من الوقت فى إذاعة تنزانيا ، ومع ذلك هناك من الشواهد ما يدل على أن لإذاعة القاهرة جمهوراً كبيراً من المستمعين الأفريقيين فى جنوب غربى أفريقيا « زامبيا » ، ولعل نجاح المقاطعة التى نادى بها حزب سوابو فى أغسطس عام ١٩٧٣ للانتخابات فى أراضى الأوفامبو ترجع جزئياً لوصول موجات الإذاعة المصرية إلى هذه المنطقة ، وهناك نقطة هامة هى أن أجهزة الإرسال المستخدمة فى تنزانيا صينية الصنع ، قدمتها الحكومة الصينية هدية لهذه الدولة ، ولقد بدأت فى الإرسال فى أواخر عام ١٩٦٦ ، ولكنها كغيرها من محطات الإرسال فى أفريقيا عرضة للتقلبات الجوية ، أضف إلى ذلك أن أجهزة الإرسال والامبليفرات والكوندسرات كثيراً ما نجدها مملوءة بالحشرات الاستوائية كالصراصير ، بل بأجسام غريبة مثل الفئران .

وتنزانيا تستخدم هذه الأجهزة إلى جانب استغلالها فى نقل الإذاعات الدولية – تستخدمها فى الإذاعات المدرسية والبرامج الإعلانية ، ولاشك أن إدخال الإعلانات أمر يُدهش الصينيين الذين تبرعوا بأجهزة الإرسال للأغراض الوطنية ، ولقد أشار وزير الإعلام التنزانى فى

يونيو ١٩٦٤ إلى هذه الحقيقة القائمة فعلا حتى الآن عندما قال : من المستحيل أن تعمل محطة إذاعة مستقلة عن الحكومة ، ولابد من نوع من الرقابة الحكومية على هذا الوسيط الذى يعتبر أقوى من الكلمة المطبوعة .

ونفس هذا الرأى هو رأى السلطات المسئولة فى المناطق التى يسيطر عليها البيض ، فالإذاعة بالنسبة لروديسيا وجنوب إفريقيا سلاح سياسى فى يد الحكومة ، وقد حدث فى عام ١٩٦١ أن أخضعت حكومة جنوب أفريقيا هيئة الإذاعة إلى عضوين من أعضاء الجمعية السرية للحزب الوطنى ، وهى جمعية عنصرية تهيمن من وراء الستار على نشاط الحزب ، وكان هذان العضوان هما د . بيت مايير وعين رئيساً لمجلس الأوصياء على الإذاعة ود . ألبرت هيرتروج وزير البريد والتلغراف . وتعيين هذين الشخصين لا يعتبر فرض رقابة احتكارية للحكومة على الإذاعة ، فهذه الرقابة الاحتكارية كانت موجودة ، إنما يؤكد التزام الإذاعة بحرفية الرقابة المفروضة عليها ، ومهما يكن من أمر هذه الإذاعة فإننا نستطيع أن نقول إن وعى الأفريقيين بعد حادث شارب فيل قد ازداد عنفاً وعمقاً . وفى صيف ١٩٦٦ بدأت محطة صوت جنوب أفريقيا نشاطها فعلا ، وأعلن مراقب عام البرامج فى ذلك الوقت ما يلى : « ستقوم هذه الخدمة فعلا على الحقائق وستكون عند حد مسئوليتها ، ولقد صدرت تعليمات مفصلة لكل شخص باتباع هذا الخط الدعائى القائم على الحقائق ، فهو خط إيجابى يجعلنا نتغلب على العوائق التى تعترض الإذاعة .

وإذاعة جنوب أفريقيا وإن تكن تتبع خطًّا عنصريًّا قاسياً فى برامجها الداخلية فإنها تلتزم بالاعتدال فى إذاعتها الخارجية للتمويه على المستمع الأجنبى ، أوكما قال مدير البرامج الاعتدال هو الطريق الوحيد لجعل الإذاعة فعالة ، ومن ناحية سياستها الخارجية نجدها لا تحاول التقليل من الخط العنصرى بل تدعمه تدعيماً فى قلوب البيض مع تحقير سكان أفريقيا الأصليين ، وهى فى إذاعتها الخارجية لغير البيض تحاول أن تبدو معقولة ، بل تتلطف مع المستمع ليبتلع دعايتها ، ويلاحظ أنها لا تحاول فى دعايتها الخارجية اكتساب الرأى العام إلى مبدأ العنصرية ضد الأفريقيين ، ولكنها تحاول أن تخفف مخاوف الرأى العام وشكوكه ، ولاسيما فى الإذاعات الموجهة إلى أفريقيا السوداء ، حيث تتجه مصلحة جنوب أفريقيا نحو عدم إثارة الأفريقيين سياسيًّا ضدها ، أو دعوتهم إلى الدخول فى مجادلات معها أوحتى الالتجاء إلى عمليات انتقام ردًّا على التفرقة العنصرية ، أما الدول الأفريقية المجاورة فتراها

تتجه نحو الدوران فى فلك جنوب أفريقيا تدريجياً ، وكان من المنتظر أن يحدث العكس ، والسبب فى ذلك التقدم البطىء هو التحرك الدولى الفعال ضد الأقلية البيضاء الحاكمة فى جنوب أفريقيا ، وتظهر لنا هذه الاستيراتيجية المعتدلة لجنوب أفريقيا فى دعايتها الخارجية ، كما بدأت صوت جنوب أفريقيا منذ مايو ١٩٧٤ فى إلغاء إذاعاته الموجهة خارج القارة الأفريقية لزيادة الوقت المخصص للدول الأفريقية المجاورة مع زيادة تأثير هذه الإذاعات .

ومن هذا يظهر أن سياسة الإذاعات الخارجية لجنوب أفريقيا تتمشى تماماً مع سياسة الإذاعة الإسرائيلية الناعمة التى تحاول أن تستهوى الناس باتزانها إلى آرائها . . والواقع أن هذا الاعتدال لا يعتبر استيراتيجية بقدر ما هو أسلوب تكتيكى ، إذ يمكن تنفيذ أى سياسة فى حالة تغير الظروف الدبلوماسية ، فالاعتدال واجب كمرحلة تسبق الانتقال إلى العنف أو إلى سياسة التأييد ، وهذا النوع من التفكير أشبه ما يكون بالتفكير النازى منه إلى تفكير الديمقراطيات ، وبالمناسبة نشير إلى أن إذاعة جنوب أفريقيا الخارجية لا تتعرض للأيديولوجيات السياسية ، سواء الديمقراطية أو الشيوعية ، ناهيك بالمشاعر الإنسانية ، وإذا أراد أحد برهاناً على ذلك فسوف يجده فى الرقابة الصارمة التى يفرضها البيض الحاكمون على محطات البانتو . فهم تحت ستار تعزيز ثقافة البانتو يؤكدون على الخلافات القبلية بين أفخاذ البانتو ، باعتبار هذه الخلافات عامل سياسى يدعو إلى الفرقة والكراهية بين قبائل البانتو ، وفى نفس الوقت تؤكد الإذاعات الصادرة من جنوب أفريقيا على وجوب التنمية المنفصلة للبيض والسود ، ويجد العنصريون فى هذه التنمية المنفصلة ما يؤكد استمرار حياتهم وكيانهم ومستقبلهم ، كما أن إذاعات الأقطار المجاورة لجنوب أفريقيا ما هى إلاّ امتدادا لبرنامج البانتو الأصلى الذى ظهر فى أوائل الستينيات ، ومن الشائق أن نشير إلى أن كثيرين من المذيعين الأفريقيين كانوا يذيعون شعارات ضد الحكومة فى ذلك الوقت ، مما أدى إلى إعادة تنظيم الإذاعة داخلياً مع إحلال الموظفين البيض الذين يعرفون اللغات الأفريقية محل الأفريقين ، ثم إقامة شبكة كاملة من المحطات للأقطار الأفريقية التى لا تتمتع بالحكم الذاتى تحت إشراف ورقابة الحكومة ، وفى عام ١٩٧٣ ظهرت إذاعة موجهة إلى قبائل الكاوازولو باعتبار أن إذاعة جنوب أفريقيا بها قسم يعمل بالزولو ، كذلك تقدم إذاعة جنوب أفريقيا برامج منفصلة للأسيويين وللمولّدين .

والتقدميون يكرهون عدم وجود نظام مستقل للاتصال الإذاعى بهذه الأقطار ، كما يمقتون ما قام به البيض فى جنوب أفريقيا إذ حوّلوا جميع المحطات إلى موجة التشكيل الذبذبى ،

وتحويل الموجات للتشكيل الذبذبى يمنع وصول أية إذاعة من خارج الحدود إلى جنوب أفريقيا ، أما البيض فيقدمون حججاً أخرى لتحويل الإذاعة إلى التشكيل الذبذبى ، فيدعون أن الإذاعة على الموجات المتوسطة والطويلة والقصيرة لا تصل نقية إلى مستمعيها ، وأن التشكيل الذبذبى هو الوحيد الذى يصل نقياً ، والنتيجة الوحيدة لذلك كله هى عزل سكان جنوب أفريقيا ، خاصة السود ، عن استقبال أى موجة قصيرة أو متوسطة من خارج البلاد ، خاصة أن الحكومة حرمت بيع أى جهاز استقبال به موجات قصيرة فى محلات جنوب أفريقيا ، ولاشك أن عملية التحويل إلى التشكيل الذبذبى سوف توصد الباب إن لم تكن قد فعلت ذلك فعلا أمام الإذاعات الصادرة من الخارج . والحل الوحيد هو إقامة عدد كبير من المحطات التى تعمل على التشكيل الذبذبى قرب الحدود ، ومع ذلك فلن يصل ترددها إلى أكثر من ٣٠ ميلا من موقع المحطة ، ولقد اقامت الإذاعة البريطانية محطة من هذا النوع فى منطقة السوسوتو ، وحتى إذا تمكنت من إقامة شبكة كاملة من المحطات عند الحدود فلن تستطيع أن تغطى جميع أنحاء جنوب أفريقيا .

والجدل يدور حول إدخال التليفزيون إلى جنوب أفريقيا منذ عام ١٩٧٦ ، وهل سيساعد التليفزيون أم يعرقل الراديو سواء فى موجاته الداخلية أو الخارجية ، ولقد قاوم هيرتزوج الوزير المناهض للأفريقيين دخول التليفزيون بحجة أن هؤلاء الذين يشاهدون التليفزيون هم نوع منحط من الناس ، وأن على البيض فى جنوب أفريقيا أن يكونوا زعماء وقادة ، وهذا المبدأ هو نفس المبدأ الذى نادى بتفوق العنصر الآرى الذى اعتنقه هتلر ، أو تفوق العنصر السامى الذى يعتنقه الإسرائيليون ، ولكن يجب أن ندرك أن التليفزيون بما له من جاذبية سوف يحتل المرتبة الأولى ، مما يعوض التأخير الطويل المدى الذى تسبب فيه هيرتزوج بمعارضته دخوله . وقد يتحول الكثيرون من البيض فى جنوب أفريقيا إلى مشاهدين سلبيين للبرامج الشعبية وللأخبار المصورة المبسطة ، وفى نفس الوقت قد يحدث هذا أيضاً بالنسبة لعدد من السود . والتليفزيون يفوق الإذاعة بدون شك كوسيلة اتصال من ناحية أنه بعيد عن الاعتدال أو الأمور الوسط ، وهو صورة من صور الدعاية ، ولا سيما الدعاية البريطانية والإسرائيلية ودعاية جنوب أفريقيا الخارجية . . أما عن أهالى جنوب أفريقيا من السود ، فإننا نجد الإذاعة المحلية لا تقدم لهم ما يشبعهم ، كما أنهم محرومون عملياً من الاستماع إلى المحطات الأجنبية ، وبالتالى يمكن القول بأن إدخال التليفزيون سينمى فى الوطنيين بجنوب أفريقيا الرغبة فى عدم المقاومة للتفرقة

العنصرية أكثر من ذى قبل .

وهناك نقطة أخيرة نسوقها بشأن فاعلية إذاعة جنوب أفريقيا هى أن هذه المحطة تعلق اهتماماً كبيراً على الإذاعات باللهجات الأفريقية ، مثال ذلك أنها تذيع بلغة السوسوتو ، وبالتالى تكون قد سبقت الإذاعات الدولية إلى اكتساب المتكلمين لهذه اللغة فى زامبيا ومالوى ، ولا ينافسها فى ذلك غير إذاعة القاهرة وإذاعة موسكو ، ولكن لا يمكن لأى من هاتين الإذاعتين أن تحصل على الأخبار المحلية بالسرعة التى تمكنها من إذاعاتها ، كما تحصل عليها إذاعة جنوب أفريقيا . ونحن إذا تجاوزنا عن هذه المحطات الثلاث – جنوب أفريقيا ، والقاهرة ، وموسكو – لا نجد محطات أجنبية تذيع باللهجات الأفريقية المحلية فيما عدا الإنجليزية والفرنسية والسواحلية والهاوسا ، وأحيانا الصومالية والشونا .

ولا يمكن لأى دولة أن تذيع بنصف اللغات واللهجات المستخدمة فى أفريقيا ، فهى عديدة جداً قد تصل إلى ألف لغة ولهجة ، ومن ناحية أخرى نجد أن أية محطة كلما توسعت فى اللغات الأفريقية ضمن لها ذلك الوصول إلى القاعدة العريضة من الشعب الأفريقى ، وإلاّ تعين عليها أن تكتفى بتوجيه إذاعاتها إلى الصفوة ، وهذا ما تفعله الإذاعة البريطانية .

ولقد كتبت جريدة الصنداى تايمز اللندنية مقالا فى عام ١٩٦٥ معلنة أن حرب الإذاعة فى ذلك الوقت هى ما بين مصر وجوهانسبرج أى جنوب أفريقيا ، فى حين كانت الإذاعة البريطانية تحتل مكانة فى الظل ، أما إذاعات بكين وموسكو فلا تأثير يذكرلها .

وترد الإذاعة البريطانية على ذلك بأن ما تقوله الصنداى تايمز فيه قسوة ، فمن ناحية نجد ظروف الاستقبال فى شرق أفريقيا تعوق وصول الموجة البريطانية هناك ، وأن المتعلمين الأغنياء من الأفريقيين يفضلون الاستماع للإذاعة البريطانية وأن عادة الاستماع للإذاعة البريطانية تكونت فى أيام الاستعمار ، عندما كانت المحطات المحلية تعيد إذاعة الكثير من المواد الصادرة عن لندن ، بل إن كينيا وأوغندا مازالتا تعيدان تعليم الإنجليزية بالراديو ، كما تستعيران بعض البرامج غير السياسية ، علماً بأن عملية نقل الإذاعة البريطانية على الهواء على موجات الإذاعات المحلية توقفت تماماً فى بعض البلدان الأفريقية بمجرد حصولها على الاستقلال . ومهما يكن من أمر فإن الإذاعة البريطانية تستطيع أن تدعى أنها لا تزال مسموعة فى بعض مناطق أفريقياوعلى الموجات المحلية ، إذ دلت بعض البحوث التى أجريت فى نيجيريا على أن هناك عدداً من المستمعين للإذاعة البريطانية فى المدن وحدها ، وأن الأوربيين الذين يتحدثون

بالإنجليزية يفضلون الاستماع إلى لندن ، كما يفضلها عدد من رجال الطبقة الراقية من الأفريقيين الذين تعلموا فى انجلترا . وهذا التأثير يمقته الأفريقيون الوطنيون ، فكثيراً ما أشارت محطة راديو أوغندا ومحطة راديو زامبيا إلى الثعبان الذى يختبئ فى الحشائش كناية عن الإذاعة البريطانية . . وفى نيجيريا لا يزال يذكر الدور الذى اتبعته الإذاعة البريطانية فى مناهضة الوحدة الوطنية ، وتأييد الثورة التى قامت بها بيافرا ويقول Frederick Foryth لقد عجب المستمعون خلال حرب بيافرا من كثرة الأكاذيب والتمويهات التى صدرت عن الإذاعة البريطانية بشأن الموقف فى نيجيريا .

وهذا النوع من النقد ترد عليه الإذاعة البريطانية بأن المشاعر الوطنية تطغى كثيراً على النقد الصحيح ، والواقع أن الإذاعة البريطانية كانت متأرجحة بين تأييد الثورة وتأييد الحكومة ، ومن ثمّ لم تكسب أيًّا منهما .

ومما يجب ذكره أن ظروف الاستقبال فى غرب أفريقيا للإذاعة البريطانية الصادرة عن محطات النقل فى جزيرة Ascension ولصوت أمريكا عن محطة النقل الموجودة فى مونروفيا جيدة للغاية ، ومن المعروف أن لصوت أمريكا ثمانية أجهزة إرسال فى ليبيريا ، وهذه الأجهزة لا تذيع مواداً تخدم بها أفريقيا ولصالحها الوطنى كما يدعى الأمريكيون ، فلم يكن لهم حتى عام ١٩٥٠ أى اهتمامات سياسية فى أفريقيا غير كونها منفى للفاشلين فى السلك الدبلوماسى الأمريكى على أن الرئيس كنيدى عدل الوضع عندما كان رئيساً للجنة العلاقات الخارجية فى مجلس الشيوخ ، ورئيساً للجنة الفرعية الخاصة بأفريقيا ، فقد رفع من شأن القارة بعض الشىء ، وفى نفس الوقت كانت أفريقيا تتجه نحو الاستقلال ، ولكن لم تكن استجابة المخابرات الأمريكية – وبالتالى صوت أمريكا – كبيرة ، بل كانت باردة ومؤقتة . . فلم يكن صوت أمريكا يوجه إلى أفريقيا إلا بالإنجليزية والفرنسية والسواحلية ، ولم تسفر محاولاته فى أقلمة إذاعاته إلى أفريقيا إلا بعرض برامج تافهة ، مثل برنامج سفرى ، مما يؤكد لنا من عنوانه تخلف وجهة النظر الأمريكية نحو أفريقيا ، وهذا البرنامج أشبه ما يكون بالواجهة الاستعمارية التقليدية التى كانت سائدة فى أوائل هذا القرن . ومما يحط من مقام صوت أمريكا أنه حاول التقليل من شأن المشكلة العنصرية داخل أمريكا ذاتها ، فى حين أنها تحتل بالنسبة للأفريقيين أهمية كبرى ، وفى الوقت الذى فشلت فيه أمريكا فى معالجة موضوع الاتصال الجماهيرى مع

الأفريقيين نجد نفس الفشل يواكب الشيوعيين . . فروسيا بعيدة عن أفريقيا والتزاماتها نحو الأفريقيين غير محسوسة ، والصينيون على الرغم من تقديمهم المساعدات لتنزانيا وزامبيا (على هيئة محطات إرسال ومعاهد تدريب) والروس على الرغم من تقديمهم المساعدات للكاميرون (على هيئة أجهزة إذاعية) فإن سياسة موسكو وبكين فى وضع البرامج الإذاعية عقيمة تهدم نفسها بنفسها ، وقد يُقال إن الروس يقدمون إذاعاتهم بلغات ولهجات متعددة هى الأمهرة والبامبرا والفرنسية للجزائر ، والعربية لمصر ، والفولانية والهوسا لغرب أفريقيا ، واللنجالا للكنغو ، والملجاسية للاجاشى ، والبرتغالية للممتلكات البرتغالية السابقة ، والشونة والسندبيلية لجنوب أفريقيا ، والصومالية والسواحلية لشرق أفريقيا ، والزولو لجنوب شرق أفريقيا . غير أن القاهرة تقدم حوالى ٢٠ لغة هى : الولوف ، والعربية ، والبامبرا ، والإنجليزية ، والفرنسية ، والفولانية ، والهوسا ، واليوربا لغرب أفريقيا ، واللنجالا ، والزولو ، والسندبيلى ، والشونا ، والسوسوتو ، والنيانجا ، والبرتغالية لوسط وجنوب أفريقيا ، والصومالية ، والسواحلية ، والعفرية ، والإنجليزية ، والأمهرية إلى شرق أفريقيا . . إلى جانب الايبو – الذى ألغى خلال ثورة بيافرا والتيجرينية – التى توقفت عام ١٩٥٦ .

ومما يعيب الإذاعة الروسية باللغات الأفريقية أنها تلتزم بالأيديولوجية والشيوعية وبطريقة التبشير البلشفية بدون أن تؤقلم نفسها مع العادات والتقاليد الأفريقية ، أما محطة راديو بكين فهى تأتى بما ينشر فى البرنامج المحلى العام وتقوم بترجمته ، كما أنها تهوى التعليقات الطويلة التى تدور حول أشياء لا يهتم بها المستمعون الأفريقيون . . ونحن إذا نظرنا إلى الإذاعات الصادرة إلى أفريقيا من خارج القارة أى من أوربا والأمريكتين وآسيا نجد قليلا من المستمعين لها ، وحتى هذه القلة تتنازعها الأيديولوجية مما يؤثر فى درجة إقناع محطاتها الموجهة إلى أفريقيا ، وليس هناك غير القاهرة التى تستطيع من بين المحطات العالمية أن تقول بحق أنها كسبت لنفسها مستمعين من جميع الطبقات ، خاصة من بين الثوار سواء فيما مضى أو فى الوقت الراهن أو الجماعات والشعوب الإسلامية . وفيما عدا القاهرة لا توجد إذاعات دولية يعتد بها غير الإذاعة البريطانية . وصوت أمريكا وإذاعات جنوب أفريقيا ، وللأسف الشديد تسعى الإذاعة الأخيرة لاكتساب جماهير الأفريقيين إليها كما تحاول اكتساب طبقة الصفوة . . ويلاحظ مع ذلك أن الإذاعات الأجنبية عامة لا تولى القارة الأفريقية اهتمامها نظراً لأنها ليست محط نزاع حتى الآن بين القوتين الكبيرتين فيما عدا السنتين الماضيتين عندما تحولت الحرب

الباردة بين القطبين الكبيرين إلى حرب ساخنة بترول الكويتيين – الشيوعيين إلى أنجولا لمساعدة الحركات الوطنية فيها ثم بمحاولة غزو زائير التى فشلت مؤخراً ثم الاستيلاء على الحبشة وفرض النفوذ السوفيتى فى ليبيا وغيرها .

obeikandl.com

الفصل الرابع

آسيا

يظهر لنا النفوذ الصينى فى آسيا أشد ما يكون منذ أن برهنت الصين وهى أكثر دول العالم تعداداً على أنها دولة عظمى فعلا . . أى منذ قيامها بتفجير القنبلة الذرية ، وبالتالى أصبح لراديو بكين نفوذ قوى يتهوى الآسيويين ، فهو يذيع ٦٨٦ ساعة من ساعاته التى تبلغ ١٣٩٠ ساعة اسبوعياً إلى مناطق آسيوية ، وقد يجد بعض المستمعين فى الوطنية الصينية ما يثيرهم كما ظهر خلال الاضطرابات الطائفية التى وقعت فى الملايو ، ناهيك بالهند التى تشعر بكثير من الريبة نحو أهداف بكين على أننا نجد فى نفس الوقت الشعوب الصينية والجاليات الصينية فى خارج الصين والمنتشرة فى كل آسيا تدرك أهمية إذاعتها الدولية ومنزلتها .

ولا نستطيع أن نقول إن الصين قد شنت حرباً دعائية فى أى وقت من الأوقات ضد أية دولة من دول آسيا إذا ما استثنينا حملاتها ضد تايوان ، وهى لا تعتبر فى الواقع حملات دعائية دولية نظراً لأن الصين تنظر إلى فورموزا باعتبارها جزءاً مكملاً للوطن الصينى ، وبالمثل تعتبر إذاعة بكين جميع الصينيين خارج الحدود امتداداً للشعب الصينى داخل الحدود . والصين تؤدى فى يومنا هذا دوراً إيجابياً فى الأمم المتحدة ، كما تظهر اهتمامها العلنى بسياسة الدول المجاورة لها ، خاصة الاتحاد السوفييتى ، وتهتم بكين بخلق نوع من التضامن العنصرى المحلى ضد الأجانب غير الآسيويين أكثر من اهتمامها بمعاداة الحكومات الأجنبية ، وهى تعلم كل العلم شعور الجفاء الذى تضمره بعض الشعوب الأسيوية نحوها . . وهذا الشعور سببه الغيرة من ناحية ، وفقر هذه الشعوب من ناحية أخرى . . كذلك نجد الكثيرين من الذين يتعاطفون مع الصينيين من بين الأسيويين والذين هم موضع استغلال أو اضطهاد الطبقات الحاكمة أى شعوب الدول الديكتاتورية فى آسيا ، فهى ترحب بالدعاية الصينية الأمر الذى لا نجد معه

محطة راديو بكين مشقة فى استمالة هؤلاء المضطهَدين وبالتالى لا تحاول تعديل خطها الدعائى الاستيراتيجى النمطى معهم . وكثير من الدول المجاورة تشبّه إذاعة الصين بقس يبشر ويعظ أكثر منها صوت دولة تعمل على استمالة « الغير » سياسياً ، وإذاعة الصين قد تقوم بمهاجمة بعض أهداف واضحة بقوة ولكنها لا تبذل أى جهود منظمة لاكتساب حكومة أو لقلب نظام حكم فى دولة أجنبية أو حتى تحاول تحليل الموقف السياسى تحليلا مستمراً فى الدول الأسيوية المجاورة فيما عدا تايوان وكوريا ، حيث نجد معارك مرة بين شمالها وجنوبها ، كذلك فيتنام قبل توحيد جزأيها وخروجها منتصرة على الأمريكان .

ولم تصل حدة الحملات الدعائية فى أى منطقة من هذه المناطق إلى نهايتها القصوى ، بل أغرت نهاية الحروب الساخنة القائمين على الحرب الباردة بتهدئة حدتها . فنحن نجد فى شروطها التسويات السلمية وقلة تبادل الاتهام بالعدوان ، بل وفى محادثات توحيد الأقطار المادة السياسية التى يتناقلها المستمعون . نجد الحاجة إلى اتخاذ مواقف لا تراجع فيها وقد حلت محل الاعتماد على « الغير » فى التوسط بين الأطراف المتنازعة . كما نجد المحطات السرية تؤيد المحطات الرسمية فى منازعة بعضها بعضاً .

وفى السنوات الأخيرة لعب راديو الهند دوره فى الدعاية الشاملة سواء ضد الصين أو ضد باكستان . والهند تذيع ٣٨٩ ساعة برامج خارجية فى الأسبوع ، على أن اهتمامها الأول يتجه نحو شبه القارة الهندية بلغاتها المتعددة ، فهى لا تضع فى المقام الأول الشعوب الخارجية واستمالتهم نحو الخط السياسى الهندى ، وإن يكن ذلك من وظائف إذاعة الهند بقدر تأكيد السمة القومية الوطنية لراديو عموم الهند مع المحافظة على اتحاد الهند أى منع أى انقسام داخلى أو ضد ما يسمونه بتهديد الباكستان . وفى الحرب الصينية الهندية عام ١٩٦٢ اهتمت الهند بحماية نفسها وتحصين أبنائها ضد دعاية ماوتسى تونج أكثر من اهتمامها بالحط من معنوية الصينيين أو التأثير فى وحدتهم ، وكانت تغلب على صوت إذاعة الهند فى هذه الفترة النبرة الهستيرية ، وقد يرجع ذلك ضمن ما يرجع إلى أن الصينيين كانوا فى الجانب المنتصر ، ولم يكن يدرى أحد إلى أين ستقودهم انتصاراتهم ومما زاد فى هستيرية الهند اتّباع الصين خطًّا معقولا فى دعايتها حينما ناشدت الهند أن تسرع فى عقد تسوية سليمة ، وهذا الخط الصينى فى الدعاية قد أدى إلى اضطراب شعبى عميق فى الهند أكثر من أى هزيمة عسكرية . والواقع أن الهند كدولة غير مترابطة بسبب تنوع شعوبها ولغاتها قابلة للتفتت ، وهى تجد فى أقل قدر من الدعاية الأجنبية

إليها عملا يمثل خطورة كبرى قد لا تستطيع الوقوف أمامها .

وفى الهند بالذات وفى أواخر عام ١٩٧٣ قام عدد من المعارضين فى البرلمان وبدءوا يتهمون حزب المؤتمر الحاكم بأنه يستغل إذاعة عموم الهند من أجل أغراضه الحزبية مما أدى إلى إصدار وزير الإعلام تكذيباً لهذه الادعاءات مع تهديده بأنه سوف يعامل بقسوة أى فرد أو حزب يفكر فى إنشاء محطة إذاعة متحدياً بذلك القانون ، وما هذا إلاّ مثل على حساسية الإذاعة الهندية لظروف البلاد الداخلية أكثر من تصدرها للتهديدات الصادرة من عناصر أجنبية .

والهنود أكثر اتحاداً فيما بينهم فى الأوقات العصيبة والأزمات مثال ذلك الحرب الهندية الباكستانية ، ولاسيما الحرب الأخيرة التى انتهت بانفصال بنجلاديش عن باكستان ، وقد ساعد هذا النزاع على اندلاع شرارة الولاء لموسكو بعد أن راحت الدعاية الشيوعية تضرب على وتر الولاء فى إذاعاتها الموجهة إلى الهند ، ومهما يكن من أمر فإن كثيرين من الهنود لا يعتقدون فى إيجابية إذاعتهم أيام الأزمات حتى عندما تكون الأحداث فى صالحهم ، وما يُقال عن الهند يقال عن باكستان وبنجلاديش .

وإذاعة الهند عبارة عن مزيج بين التفكير البريطانى والأمريكى والروسى ، فهى تحتكر النشاط الإذاعى فى الهند بأسره ، وقد قامت فى أول الأمر متخذة من الإذاعة البريطانية نموذجاً لها ، ولكنها فى نفس الوقت لم تكن مستقلة عن وزارة الإعلام أو عن وزارة الخارجية حتى كثر نقادها وتحدث الناس عن اليد الرسمية القوية التى تحكم الإذاعة . . والإذاعيون فى الهند قد لا يوافقون بين أنفسهم على أن تصدر تصريحات رئيس الوزراء مثلا النشرات الأخبارية ، أو أن تضم جميع الموجات لإذاعة خطاب رئيس الوزراء بما فى ذلك الموجات الحاملة للإذاعات الدولية ، برغم أنها لن تفهم فى المناطق المستهدفة . وفى السنوات الأخيرة حاول بعض العاملين فى إذاعة الهند التحرر قليلا من القيود المفروضة عليهم ، لا سيما من ناحية جعل المحادثات والمناقشات حرة فى الخدمات الإنجليزية ذلك لمنافسة الإذاعة الصادرة من سيرلانكا والتى تعمل على إذاعة أحدث الأغانى فى برامجها بالإنجليزية والسينيجالية والتاميلية والهندية ، مما حدا بإذاعة الهند أن تعتنى باختيار الموسيقى الحديثة فى إذاعاتها الدولية . كذلك تسببت المنافسة مع راديو سيلان فى عام ١٩٦٧ فى إدخال الإعلانات على موجات إذاعة الهند ، ومن الناحية السياسية نجد إذاعة الهند تدرك كل الإدراك أن الدعاية الوطنية الهجومية كالمقلاع يرتد إلى صاحبه .

وإذاعة عموم الهند تقدم ساعتين يومياً إلى الصين ، ولكن القسم الرئيسى من الإذاعات الدولية موجه إلى باكستان وإلى الهنود فى الخارج . أما الإذاعة بلغة الباشتو وبلغة دارى فى أفغانستان فلا تمثل أكثر من أربع ساعات يومياً . ولما كانت الهند تجاور الباكستان كان من السهل على شعبى الدولتين – خاصة فى مناطق الحدود – أن يستمع كل منهما إلى إذاعة الآخر . أما الهنود فى جنوب شرق آسيا وشرق أفريقيا فيعتمدون على الإذاعة الموجهة بالهندية والتاميلية أو الكوجراتية والكونجانية والسواحلية ، وهذه الإذاعات تذاع على محطة متوسطة قوتها ألف كيلووات .

وكان لارتباط الهند بالشرق الأوسط وللصلات السياسية التى تربطها بمصر كزعيمة من زعماء دول عدم الانحياز أثر فى أن تقرر إذاعة عموم الهند إدخال اللغة العربية عام ١٩٦٨ ، وهكذا نجد أن للهند موجات تصل إلى الشرق الأوسط كما تصل إلى البحر الكاريبى على محطات قصيرة قوية وباللغة الإنجليزية . . . كذلك إذاعة باكستان تقدم ساعة ونصف الساعة باللغة العربية إلى المسلمين فى الشرق الأوسط إلى جانب إذاعاتها باللغة الأردية لشبه الجزيرة الهندية ، وبالإنجليزية إلى المملكة المتحدة والشرق الأوسط . . والواقع أن الهند وباكستان يجتهدان فى إظهار منافستهما خارج نطاق دولتيهما أى أمام « الغير » . ونفس هذه المنافسة فى الإذاعات الدولية نجدها بين أندونيسيا والملايو ، ومن المعروف لنا جميعاً أنه كانت هناك مجابهة بين الدولتين وانتهت ، ومن ذلك نجد أن نصف الإذاعات الأندونيسية الدولية موجهة إلى الملايو ، كذلك نجد الإذاعات الملاوية موجهة فى الأصل إلى أندونيسيا . وتذيع أندونيسيا بثمانى لغات ، والملايو بخمس لغات . . بالإضافة إلى الأندونيسية ويبدو أن كل إذاعة منهما تحاول أن تتحرش بالأخرى بدون أن تبدأ العدوان ، ومن بين الإذاعات الأسيوية التى تملك خدمات لغوية عديدة إذاعة الفلبين ، وهى تذيع بأكثر من خمس لغات رئيسية حول العالم ، كما تذيع برامج باللهجات الصينية إلى جانب اللغة المندارية والتاميلية والتبت والمنغولية والأوناجا Aonaga .

ولعل أهم إذاعة دولية فى آسيا هى إذاعة اليابان ، التى أعيد تنظيمها بعد الحرب العالمية الثانية ليس على غرار النظام الأمريكى بل على نسق الإذاعة البريطانية ، وقد قامت محطة N.H.R. وهى هيئة مستقلة ، بتمويل من الحكومة وتحت رقابتها ، وكانت من قبل احتكاراً . وفى السنوات التالية تحولت N.H.R. إلى عدد ضخم من المحطات التجارية .

وكان الجنرال ماك أرثر فى عام ١٩٤٥ قد حرم على اليابانيين افتتاح خدمات لغوية دولية ابتداء من عام ١٩٤٥ ولمدة عشر سنوات حتى لا تكون بوقاً للعسكرية اليابانية ، على أن الولايات المتحدة سمحت لليابان فى منتصف يناير ١٩٥٢ بالبدء فى الإذاعات الأجنبية باللغتين اليابانية والإنجليزية ، وكانت أمريكا ترى فى ذلك مساعدة كبيرة لها فى تسيير العمليات العسكرية بكوريا ، أما اليوم فتذيع اليابان باثنين وعشرين لغة ، وإن تكن تهتم فى المقام الأول باليابانية والإنجليزية ، أما اللغات الأخرى فتجمعها جميعاً وحدة تنظيمية واحدة .

وفى الوقت الراهن تهدف اليابان من وراء إذاعاتها باللغات الأجنبية أن يكون لها بعض النفوذ عن طريق تعزيز الصلات التجارية وليس عن طريق الاستمالة السياسية ، وهذه الإذاعات تعرض بصورة قوية السياسة الاقتصادية لليابان ، وفيها يسمح عادة بذكر أنواع المنتجات اليابانية ، على الرغم من أن الإشارة إليها فى البرنامج المحلى محرم باعتباره إعلاناً ، والواقع أنها فى ذلك تتبع نظام الإذاعة البريطانية ، فنجد مثلا برامج عديدة عن زيارات للميكرفون إلى المصانع اليابانية مع وصف إنتاجها وتحديد الأسماء التجارية للمنتجات اليابانية ، وعلى الرغم من أن واحداً فى المائة من ميزانية الإذاعة اليابانية قد خصص للإذاعة الخارجية فإن الانتعاش التجارى فى اليابان قد أظهر أن هذه النسبة (١٪) تعتبر أكثر بكثير من الاعتمادات المخصصة للإذاعات الخارجية فى كثير من الدول الأخرى .

وهذه السمة التجارية فى الدعاية قد تكون معقولة ومقنعة بالنسبة لبعض الناس ، ولكنها تثير الشك والريبة ، خاصة أن اليابانيين قد أصبحوا يشعرون بحساسية شديدة للاتهامات التى يوجهها « الغير » إليهم من أنهم استعماريون اقتصاديون ، وبالتالى قلّ إقبال الناس على إذاعاتهم ، وإذاعة "N.H.R." تواجه الكثير من الصعاب التى تتمثل فى أنها تتميز عن غيرها من الناحية الدعائية بسبب تقدمها الاقتصادى .

وقد جاء فى قانون الإذاعة أنه يحق للإذاعة اليابانية أن تنشئ خدمات دولية لتعزيز التفاهم الدولى والرفاهية الدولية ، إلا أن تحفّظ اليابانيين وعدم وجود تقاليد إذاعية قد حال دون استغلالهم لمحطات الإرسال استغلالا سياسيًا ، والواقع أن دور اليابان فى آسيا أشبه ما يكون بدور الإذاعات الدولية البرازيلية فى أمريكا اللاتينية ، فالإذاعة اليابانية تعتبر مسكناً للقلق السياسى ، وهى بذلك تخدم سياسة أمريكا ، وهى لا تمانع فى أن تعرض ما قد يعيب اليابان فى الإذاعات الخارجية من الناحية السياسية ولكنها جريئة فى الشئون الاقتصادية ، أضف إلى

ذلك أنها تحاول أن تسير فى خط وسط ، فهى لا تدعو المتطرفين إلى الاستديو للتعبير عن آرائهم ، إذْ إنها تتبع سياسة الابتعاد عن إثارة المتاعب التى لا فائدة منها .

والدعاية السيئة قد تضر بالجانب التجارى ، وقد تبعد السياح عن البلاد ولكن لما كانت السياحة من أهم وظائف الإذاعة الخارجية فى اليابان فإننا نجدها تهتم بالدعاية التى تجذب السياح ، ولهذا السبب يدقق اليابانيون عند تشغيل الموظفين ، فهم يقصرون عملية التوظيف فى الإذاعة على خريجى الجامعات إذا ما كانوا يحملون توصية قوية من رئيس الجامعة ، ثم يؤخذون إلى إمتحان صعب عسير ، وبعده إلى اختبار شفهى أشد عسراً ، ثم إلى تدريب لمدة ثلاثة أشهر ، ومن هذا نرى أن الإذاعة اليابانية سلكت نفس طريق الإذاعة البريطانية ، ولكن بصورة أقرب إلى الضجر منها إلى أى شىء آخر .

ومن المفهوم أن تعنى الإذاعة باختيار موظفيها العاملين فى البرامج كما هو حادث فى أية إذاعة أخرى فى العالم ، والسبب فى ذلك أن العاملين فى البرامج هم الذين يقومون بإعداد التعليقات اليومية ، وقد يحدث أن يستكتبوا بعض الصحفيين من الخارج ، ولكن لمدد محدودة جداً ، وبشرط أن يلتزم الكاتب بالخط الدعائى وإلا استغنى عنه .

وأما عن تأثير إذاعة اليابان فيقال إنه أظهر ما يكون فى أندونيسيا والهند والولايات المتحدة ، ويقال أيضاً إن لها مستمعين فى أستراليا ونيوزيلاندا ويستشهدون على ذلك بازدياد الخطابات من هذه الأقطار ، والواقع أن استراليا أخذت تنافس اليابان من الناحية الاقتصادية وفى نواحى الدعاية الدولية ، وقد ازدادت أهميتها حتى أصبحت عاشر دولة فى العالم ، فهى تذيع بالأندونيسية ، واليابانية والماندراية والكانتونية والفيتامية والسيامية إلى جانب الإنجليزية والفرنسية وتدعى أن عدد مستمعيها المنتظمين الذين يستمعون إليها مرتين فى الأسبوع أو أكثر حوالى عشرة ملايين نسمة ، وهى تطمع فى زيادة عدد اللغات التى تستخدمها . أما نيوزولاندا فتركز إذاعاتها الدولية الصغيرة على جزر المحيط الهادى باللغات الساموية Samoa والراوتنجية Rarotoge والنيووبة Nieu كما أنها تأمل أن تصل إلى منطقة المحيط المتجمد الجنوبى حتى يسمعها العلماء المعسكرون هناك ، ومن الملاحظ أن أستراليا تنافس اليابان من أجل استقطاب المستمعين فى آسيا . والسلطات الأسترالية كاليابانية تعتقد فى استخدامات الإذاعات الدولية فى النواحى التجارية ، ويرجع أن يكون السبب وراء هذا التأثير التجارى الوضع الإذاعى فى أمريكا ، بل إن اليابان وأستراليا يحاولان منافسة الإذاعة

الأمريكية ، فهما يريان أن الحملات المكثفة تؤدى إلى نتائج باهرة إذا ما استمرت فى قوتها بضع سنوات ، والإذاعات الدولية ما هى فى نظرهم إلا طريق للمنافسة على أسواق العالم ، وهو طريق لا يمكن إهماله . وأستراليا كأمريكا لا تنظر لنفسها كدولة أجنبية عن آسيا إذ تحاول أن تدخل السوق الأسيوى ولكنها تعتقد أن وجودها فى آسيا أصيل ، وأن هذا الوجود لا يتمثل فى محض وجود ممثلين لأستراليا كالسفراء والوزراء المفوضين ، بل فى الإذاعة والتليفزيون وغير ذلك من وسائل الاتصال .

وقد يقال إن إنسحاب بريطانيا من شرق السويس قد جعل من العسير عليها الاحتفاظ بمركزها عن بعد ، أى عن طريق الإذاعات الدولية ، ولكن هناك بعض الأسيويين الذين ينظرون إلى الإذاعة البريطانية باعتبارها برنامجاً محلياً لهم بل يتتبعون هذه الخدمة ويقبلون عليها .

وأهم ما تهتم به الإذاعة البريطانية فى الوقت الحاضر بالنسبة لآسيا هو الاحتفاظ بمحطات النقل ، ولما كانت حكومة الملايو قد أخطرت بريطانيا بأنها لا ترغب فى استضافة محطاتها على الموجة المتوسطة أو القصيرة ، وأنها سوف تنهى الاتفاقية معها . فقد بدأ البريطانيون فى الحال مفاوضات جديدة من أجل الحصول على موضع قدم لهذه المحطات فى سنغافورة التى تعتبر مكاناً نموذجياً لإنشاء محطات النقل فى آسيا ، ولكن المشكلة تتمثل فى عدم وجود مساحات واسعة مسطحة يمكن إقامة « الانتينات » عليها ويضع البريطانيون جزيرة بروفى كبديل لسنغافورة . وأما عن راديو موسكو فهو يهتم بالصين كل الاهتمام ، حتى إنه أنشأ إذاعة جديدة موجهة إلى الصين خصيصاً إلى جانب برامجه لآسيا ، وتلك الموجهة إلى الجاليات الصينية خارج الصين .

ويبدو أيضاً أن أمريكا تحاول أن تثبت وجودها فى آسيا ، فهناك شبكة إذاعات القوات الأمريكية فى كوريا ، وهى تعمل من سبع مدن بجنوب كوريا . وهناك أيضاً راديو القوات العسكرية وصوت أمريكا ، وجميعها تذيع باللغة السياسية . كما أن صوت آسيا الحرة جزء من صوت أمريكا ، وهو موجه إلى سيرلانكا ويحمل بالمثل بعض الإذاعات الصادرة مباشرة من أمريكا .

ويبدو أن معركة الأثير قد بدأت فعلا فى آسيا فيما عدا اليابان بين الصين وأمريكا ، إذ إن الراديو برغم تهديد التليفزيون له فإنه مازال الوسيلة الغالبة فى آسيا . فالهند مثلا لا تملك غير ٨٠٠ ألف جهاز تليفزيون فى عام ١٩٧٩ ولكنها تملك ٣٥ مليون جهاز راديو ، هذا وتنتشر

المحطات السرية فى هذه الظروف السياسية التى تمر بها القارة الأسيوية ، فمن ناحية نجد أمريكا التى تحاول الحفاظ على الأوضاع الأيديولوجية الرأسمالية وبين الصين وغيرها من الدول التى تحررت بمساعدتها تحاول التأثير فى النفوذ الأمريكى والحد من وجوده فى آسيا .

obeikandl.com

الفصل الخامس

أمريكا اللاتينية

يبلغ عدد أجهزة الإذاعة فى عام ١٩٨٠ بأمريكا اللاتينية التى يسكنهاأكثر من ٣٠٠ مليون نسمة حوالى ٩٠ مليون جهاز ، وهى نسبة تفضل نسبة أمتلاك أجهزة الراديو فى آسيا فيما عدا اليابان وأفريقيا ولكنها لاتصل إلى نسبة أمريكا الشمالية أو إلى نسبة الأجهزة فى أوربا . ومع ذلك نجد أن الإذاعة سواء كانت صوتية أو مرئية تتكاثر محطاتها بشكل لامثيل له فى العالم ، ويقدر البعض عدد أجهزة الإرسال فى القارة الأمريكية بنحو ٤٥٠٠ محطة فى عام ١٩٨٠ ، ويكفى أن نشير إلى أن عدد محطات الإرسال المحلية فى مدينة جواتيمالا مثلا حوالى ٤٠ محطة منها محطة راديو مونتريال التى تصل إشارتها إلى أعماق الولايات المتحدة ، على أن غالبية المحطات الأخرى صغيرة وضعيفة . . أما البرازيل التى تعتبر أكبر دول أمريكا اللاتينية ففيها ٧٥٠ محطة ، منها ٦٨٩ محطة تجارية ، أى حوالى ٩٢٪ .

والعادة أن تمتلك الحكومات فى أمريكا الوسطى والجنوبية محطة أو محطتين ، وإذا لم تكن تمتلك محطات على الإطلاق فإنها تستأجر وقتًا من المحطات التجارية فى أوقات معينة ، وغالبية المحطات فى أمريكا اللاتينية (وهى تشمل جميع الدول التى تتكلم الأسبانية والبرتغالية فى العالم الجديد ، أى أمريكا الوسطى وأمريكا الجنوبية) ضعيفة وصغيرة لاتصلح إلاّ للإذاعات الخفيفة أو للإعلانات الشعبية الى جانب القليل من الأخبار وهى تتبع نفس نموذج أمريكا الشمالية والأسبانية بالنسبة لدول أمريكا اللاتينية» فيما عدا البرازيل والإذاعات الدولية لهذه الدول تقدم أساسًا اللغة الأسبانية ، سواءً كان ذلك عن تخطيطها أو أتى بطريقة عشوائية ، أما البرازيل فتهتم أصلا بالبرتغالية لغتها الأصلية . وفى أمريكا الوسطى تتداخل إذاعات دول هذه المنطقة بحيث يستطيع أى شعب من شعوبها أن يلتقط إذاعة الدولة المجاورة وذلك بسبب صغر

رقعة هذه الدول مع قوة المحطات ، كذلك يستطيع أى شعب يتاخم دولة كبيرة أن يلتقط بانتظام موجه هذه الدولة ، مع أن الدعاية السياسية فى إذاعات أمريكا اللاتينية تكاد أن تكون مفقودة فالسياسة لاتمثل وظيفة من وظائف الإذاعة ومن ثم فإن الدعاية السياسية لاتعتبر أمرًا مقلقًا للطبقات الحاكمة فى دول هذه المنطقة ، وقد جرت العادة أن تتجاهل الحكومات الآثار المادية للإذاعات الخارجية الصادرة من الدول الأجنبية على الرأى العام الداخلى ، ولكن هناك بعض الشواذ لهذه القاعدة ، فقد حدث فى يناير سنة ١٩٧٤ مثلا أن أمرت حكومة أرجواى بإيقاف محطة تجارية لمدة عشرة أيام ، إذ كانت تمزج الدعاية بنشرات أخبارها إلى الأرجنتين مخافة أن توجه الأرجنتين إلى أرجواى دعاية سياسية مماثلة .

وكوبا تعتبر الدولة الوحيدة التى تمتلك إذاعات دولية فى أمريكا اللاتينية بمعنى أن راديو هافانا هو الوحيد الذى يصدر نغمة « نشازًا » فى سيمفونية من العازفين الذين ينتمون إلى أحزاب اليمين فرجال الأعمال بأمريكا اللاتينية تؤيدهم وتعينهم الأحزاب الأمريكية فى الولايات المتحدة ، سواء بالطريق الرسمى أو غير الرسمى ، أو عن طريق المخابرات الأمريكية ، وهذه السيمفونية من العازفين اليمينيين لاتملك من أدوات العزف غير جهازى الإذاعة والتليفزيون حتى الآن ، وأن تكن البرامج الدولية قد وجدت طريقها تدريجيًا فى الأوركسترا ولكن لم تظهر نغمتها بعد .

ويعتبر راديو هافانا « كوبا » الصوت اليسارى الوحيد فى أمريكا اللاتينية بعد الانقلاب العسكرى فى شيلى فى سبتمبر عام ١٩٧٣ ، وراديو هافانا له تأثير كبير فهو من ناحية أكبر محطة إرسال فى أمريكا اللاتينية ، ويعتبر الحادى عشر بين إذاعات العالم الدولية ، إذ يذيع ٣٨٢ ساعة فى الأسبوع غالبيتها باللغة الأسبانية ، كما يذيع بعض برامج باللغة الكريولية إلى هايتى وباللغة الجوارنية إلى برجواى ، وباللغة الكاوشوية الى جبال الانديس فى بوليفيا وبيرو وإكوادر كما يذيع باللغتين الإنجليزية والبرتغالية لأمريكا اللاتينية وبالإنجليزية والفرنسية والأسبانية والعربية إلى أوربا والشرق الأوسط .

وإذاعات هافانا الدولية الموجهة إلى شعوب غير اللاتينية فى أمريكا الجنوبية أوالبحر الكاريبى لا تأثير لها على الإطلاق وهذه الإذاعات الدولية هى لمجرد شغل حيز فى الهواء أو للمباهاة بأن لها إذاعات موجهة لجماعات المهاجرين ، على أن الإذاعات الأخرى بلغة أمريكا اللاتينية أى الأسبانية لها مستمعوها .. كذلك تعتبر إذاعة هافانا الشاهد الوحيد على

ثورة كاسترو والمنبه اليومى للمستمعين اليساريين فى أمريكا اللاتينية إلى منزلة كاسترو العظيمة بينهم على أن إذاعة كوبا تعمل على الموجة القصيرة وطبيعة الموجة القصيرة لاتصبح كثيرًا للدعاية الهدامة نظرًا لما يعتريها من خفوت وتلاش ، وفى حالة أمريكا اللاتينية تعتبر المو صلات والاتصالات أكبر مشكلة تواجه الحكومات اللاتينية ويواجهها الثوار ويواجهها بالمثل رجال المخابرات الأمريكية لمناهضة الأنظمة الشيوعية ، وفى مثل هذه الظروف وفى هذه المنطقة بالذات يحتاج اليساريون إلى مايرفع من معنوياتهم فى الكفاح الذى يبدو غالبًا بدون نهاية وبدون تأييد ، وفيما عدا كوبا هناك المكسيك والأرجنتين اللتان تملكان إذاعات دولية ، والأولى لاتذيع أكثر من سبع ساعات فى الأسبوع ، وإذاعاتها الموجهة شكلية للغاية ولاتحتاج إلى مناقشة ، أما الثانية فقصتها هى قصة المواهب الضائعة والفرص المهدرة ، فهى تذيع رسميًا بسبع لغات ولمدة تزيد على ستين ساعة فى الأسبوع ، ولكنها لم تحاول أن تحسن برامجها لتصل بها إلى المستوى الدولى العادى ، وقد يعود ذلك إلى قلة الاعتمادات التى تخصصها الحكومة ، كما أنها إذاعة متحزبة وعشوائية ، وليس معنى ذلك التقليل من ثقافة الأرجنتين وحضارتها ، فهى الغالبة فى أمريكا اللاتينية ، وتستطيع هذه الدولة أن تقيم لنفسها عن طريق الإذاعات الدولية سمعة ثقافية طيبة ، إذا ماشاءت أن يكون لها اتجاه سياسى واقتصادى خاص . أضف إلى ذلك أن الأرجنتين قوية الارتباط بأوربا ثقافيًا وحضاريًا .

ويبدو أن الوقت قد فات لتحتل الأرجنتين مركز الدولة الأولى الرائدة فى أمريكا اللاتينية خاصة بعد موت بيرون ، مما أثر على استقرارها ورخائها ، ومن ثم تعتبر البرازيل الدولة الأولى الرائدة فى أمريكا اللاتينية ، وقد احتلت هذا المركز من زمن طويل .

ومما ساعد على ذلك أن قوتها الاقتصادية آخذة فى النمو ، وسكانها من البرتغاليين قد نهضوا بها بشكل لاتستطيع معه دولة من الدول الأسبانية أن تلحق بها ، بيد أن البرازيل تعمل منفردة فهى دولة غريبة فى وسط المجموعة الأسبانية ، لأنها تتكلم البرتغالية ، وقد أضفت هذه الحساسية على حكومتها شعورًا بالامتناع عن كل مايثير شعوب أمريكا اللاتينية التى تتحدث الأسبانية ، وقد أشار الرئيس نيكسون فى خطاب له بواشنطن فى أواخر عام ١٩٧١ وبحضور رئيس جمهورية البرازيل إلى أن كل الناس فى أمريكا اللاتينية تعرف مركز البرازيل ولكنها تأبى أن تعترف به ، وقد قال نيكسون بالحرف الواحد : « أينما ذهبت البرازيل تبعتها أمريكا اللاتينية » .. وكان لهذه العبارة رد فعل صارم ، وفى الحال فقد قامت الدول التى تتحدث

بالأسبانية بالاحتجاج مع تأليف جبهة ضد البرازيل ، وقد رأت حكومة البرازيل أن تنشئ خدمات لغوية فى إذاعاتها الدولية فى خريف ١٩٧٢ بعد أن استمرت فى تجارب سنة . وهذه الإذاعات تعمل بخمس لغات أوربية ولمدة ساعة يوميًّا لكل لغة ، ويلتزم المشرفون عليها منتهى الحيطة والحذر ، إذ يبغون من ورائها تهدئة النفوس لا إثارتها ، وكما حدث لراديو بكين نجد المواد التى تذيعها محطة راديو البرازيل تترجم كلمة كلمة عن الأصل البرتغالى بدون بذل أى جهد للمواءمة بين المترجمة والمستمعين ، وإذاعة برازيليا الدولية تهتم اهتمامًا كبيرًا بالموسيقى وبالأحداث وبالبرامج الخاصة ، بهدف الوصول إلى أرفع منزلة من ناحية الكرامة والسمعة مع أقل مسحة من التهجم ومثل هذه السياسة تصلح عند إنشاء المحطات ، ومن الممكن تعديلها إذا مادعت الظروف ، ولكن إذاعة البرازيل تهتم بالحديث الودى لا بالدعاية ، ومن بين البرامج الناجحة فلنستمع إلى السامبا ، وفى شيلى نرى الإذاعة تحاول عرض الخط الاستراتيجى للأحزاب المختلفة ، وإن تكن تجد صعوبة كبيرة عند عرض خط المعارضة المتطرفة وسياستها . وهنا نجد تنازع السياسات على الهواء مباشرة ، ويبدو أن تغيرًا كبيرًا قد حدث منذ أن وقع انقلاب عام ١٩٧٣ ، فقد حرمت الحكومة قيام الأحزاب الماركسية ، وبالتالى صودرت محطات الإذاعة الماركسية وفى نفس الوقت بدأت جماعة الانقلاب العسكرية تقدم دعايتها الدولية معارضة دعاية الشيوعيين المضادة .

وإنتاج البرامج الدولية فى شيلى متواضع ، فهى تذيع بسبع لغات ، وكل لغة تستغرق أكثر من ٣٠ دقيقة تأتى الواحدة منها تلو الأخرى ، ونغمة هذه الإذاعات الدولية تقارب نغمة راديو القوات المسلحة وراديو كاريبنيرو الذى يعتبر بوق الجماعة الحاكمة فى الداخل ، وهو يعمل داخل نطاق راديو الجماعة فى Concepcion بعد مصادرته ، وأهم سمة لهذه الإذاعة أنها تشعر بكرامتها الجريحة وتلتزم بخط دفاعى ضد الأنباء والتقارير التى تتسرب إلى الخارج وتنشر فى الصحف التى قد تحوى الكثير من المعارضة فى شيلى . وقد وردت عبارة الدعاية الشيوعية المعادية فى بيان العسكريين الذى برروا به رسميًّا ثورتهم وليس المقصود بذلك راديو هافانا وحده بل ، إذاعات موسكو وبكين ، فإذاعة موسكو تستخدم محطات إرسال قوية إلى أمريكا اللاتينية ولها مستمعوها ، وعلى العموم فإن الإذاعات الدولية الموجهة إلى أمريكا اللاتينية لاتلقى اهتمامًا يذكر ، وقد رأت الإذاعة البريطانية أن تعزز فاعلية محطتها بأن تذيع على الموجة المتوسطة عن طريق محطة النقل فى انتاجو بالاتفاق مع إذاعة ألمانيا الغربية ، وقد تم ذلك منذ عام

١٩٧٥ وترى الإذاعة البريطانية ضرورة نقل إذاعاتها على الموجة المتوسطة ، نظرًا لأن الناس فى أمريكا الجنوبية قد اعتادوا على استخدام الموجات المتوسطة ، فهم يديرون مؤشر الراديو ليلتقط أية محطة تعمل على هذه الموجة ، ويقول المشرفون على الإذاعة البريطانية إن لديهم رصيدًا آخر يمكنهم من اكتساب هؤلاء الذين لم تستهوهم الإذاعات الشرقية أو الغربية ويعنون بالغربية هؤلاء الذين يكرهون الأمريكيين ولايريدون الاستماع إلى صوت أمريكا .

وقد شغلت الولايات المتحدة منذ زمن طويل بالدعاية المباشرة لأمريكا اللاتينية إذ تعتبرها بمثابة منطقة نفوذ أصلية لها ، وكانت هناك بعض المحطات الأمريكية الخاصة ، حتى قبل الحرب العالمية الثانية – توجه برامجها التجارية إلى أمريكا اللاتينية ، وبالمناسبة لم تحاول دول أمريكا اللاتينية مواجهة الدعاية النازية والفاشستية ، سواء عن طريق التشويش أو الدعاية المضادة حتى أغسطس عام ١٩٤٠ ، عندما تولى نلسون روكفلر مهمة تنسيق الإذاعات التجارية بإدخال المواد الثقافية فيها إلى جانب الدعاية ثم تولى بعد ذلك مهمة التنسيق بين جميع الإذاعات الصادرة من دول أمريكا الشمالية إلى دول أمريكا الجنوبية .

ولم تستقطب الحرب النفسية الأمريكية خلال الحرب العالمية الماضية أمريكا اللاتينية إطلاقًا ، فكانت بالنسبة لها تأتى فى ذيل الدول المعنية ، إلى أن جاء كيندى وبدأ حملته فى بداية الستينيات ، على أن هذه الحملة لم تتجاوز معارضة كاسترو وسرعان ماخمدت ، ويقول أحد الكتّاب – وهو روبرت إيلدر مايلى :

« كانت الإذاعات الأسبانية لكوبا والصادرة من صوت أمريكا أقل اتزانًا ومعقولية فى الفترة من ١٩٦٣ حتى ١٩٦٧ ، بسبب الضغوط المحلية التى كان يبذلها المهاجرون الكوبيون عن طريق أعضاء الكونجرس الأمريكى » .

وأشار جورج ألن مدير المخابرات العامة الأمريكية إلى أن الخط الدعائى الذى اتبعه صوت أمريكا فى عام ١٩٦٢ أى عام الأزمة الكوبية فى إذاعته باللغة الأسبانية كان ضرره كبيرًا ، فقد مكن كاسترو من استدرار عطف الأمريكيين اللاتينيين باعتباره هدف أكبر عملية دعاية مركزه تطلق ضد فرد من الأفراد منذ أن حاول ستالين طرد تيتو من يوغسلافيا فى عام ١٩٤٨ ، والواقع أن صوت أمريكا واصل هذه الدعاية السيئة بعد عام ١٩٦٢ إلى أن عاد نيلسون روكفلر فى عام ١٩٦٩ إلى وظيفته القديمة كمنسق للدعاية ، وقد قدم تقريرًا للرئيس نيكسون عن علاقة أمريكا بدول أمريكا اللاتينية وكان من بين التوصيات التى تقدم بها مايلى :

« يجب بذل مجهود كبير لتحسين صوت أمريكا بحيث ينافس إذاعة هافانا فى منطقة أمريكا الوسطى مع تحسين البرامج وتحسين الموجة » .

ولم يكن الأمريكيون من موظفى المخابرات الأمريكية التى يتبعها صوت أمريكا متحمسين للقيام بحملات استمالة طويلة الأمد على الموجات القصيرة فى أمريكا اللاتينية ، وكانوا يفضلون التغلغل المباشر أو المواجهة الشخصية ، سواء كانت عن طريق رجال الأعمال أو رجال المخابرات أو أى وسيلة أخرى ومعنى ذلك من ناحية الراديو توزيع برامج معدة مجانًا على محطات أمريكا الجنوبية .

وليس هناك من وسيلة أمام رجال الدعاية غير تبادل البرامج أو تبادل الإذاعات من أجل الوصول إلى جمهرة كبيرة من المستمعين فى أمريكا اللاتينية ، ولقد درجت المخابرات الأمريكية ولسنوات عديدة على سياسة تقديم البرامج مجانًا لتذاع مع نشرات الأخبار والتعليقات فى المحطات المحلية ، التى هى على استعداد دائمًا لقبول مثل هذا التبادل ، والواقع أن عملية التبادل مع أمريكا الشمالية تمثل بالنسبة للمحطات السبعة عشرة الموجودة فى جمهوريات أمريكا اللاتينية حوالى ٤٠٪ من البرامج ، بل نستطيع أن نقول إن غالبية محطات أمريكا اللاتينية ومحطات الموسيقى الكلاسيكية ما كانت لتحيا لولا اعتمادها على البرامج المجانية الواردة من أمريكا ، ونلاحظ هنا أن الإذاعة البريطانية متخلفة عن الإذاعة الأمريكية ، فهى تشكو مر الشكوى من نواحى القصور التى فرضتها على نفسها برفضها إرسال أشرطة مجانية لتذاع فى محطات أمريكا اللاتينية ، ومن المعلوم أن هناك منافسة قاتلة بين محطات أمريكا اللاتينية التى تعتمد على الإعلانات فى تمويل البرامج ، ومن ثم كانت الاوقات الخالية بها قليلة ، بل تعتبرمنة من الله . ويبدو أن الإذاعة البريطانية تخشى أن يكون فى تقديمها البرامج مجانًا سابقة يجب أن تتبعها فى مناطق أخرى كالشرق الأوسط ، ولكن البريطانيين نسوا أنهم لن يستطيعوا التقدم ضد الأمريكان إلا إذا قدموا تسهيلات إذاعية ، خاصة أن المستمعين على استعداد لأن ينضموا إلى جانب الإذاعات التى تحاول استمالتهم ، والمتعلمون منهم يرغبون فى الاستماع إلى خدمة إخبارية جيدة وإلى برامج ثقافية عالية ، نظرًا لأن مثل هذه الخدمات لاتتواجد فى إذاعاتهم المحلية ، وهم لاينظرون إلى الولايات المتحدة لتوفير هذه الخدمة ، فالأمريكيون بسوء تدبيرهم وتعاليهم وبدعايتهم العرجاء بنوا لأنفسهم رصيدًا من الكراهية ، فى حين يسعى المثقفون فى أمريكا اللاتينية وراء الثقافة الأوربية ولانغالى إذا قلنا إن الصفوة بل جماهير العمال

والفلاحين تعادى بغريزتها الاستعمار الاقتصادى الأمريكى ولايرغبون فى أن يتسلط عليهم صوت أمريكا ومن ثم نراهم يتطلعون إلى إذاعة رفيعة ومرفهة فى نفس الوقت مثل إذاعة هافانا أو إذاعات الشيوعيين من موسكو وبكين . . والمواد الأمريكية نجدها بصفة مستمرة فى كل إذاعة أمريكية وقد سئمها ولكن الناس ولكن لانستطيع أن نجزم بأن أمريكا لم تحقق جزءا من الهدف الدعائى الذى كانت ترمى إلى الوصول إليه من وراء هذه البرامج برغم أن شحن الموجات الإذاعية بالمواد الأمريكية يثير مقتًا شديدًا بين أهالى أمريكا اللاتينية ، وهم يعلمون أن هذا المقت أشبه مايكون بمقت السجين لسجانه . . ومن ثم كانت هذه البرامج غير صالحة لربط أهالى أمريكا الجنوبية بسجانيهم الاقتصاديين .

obeikandl.com